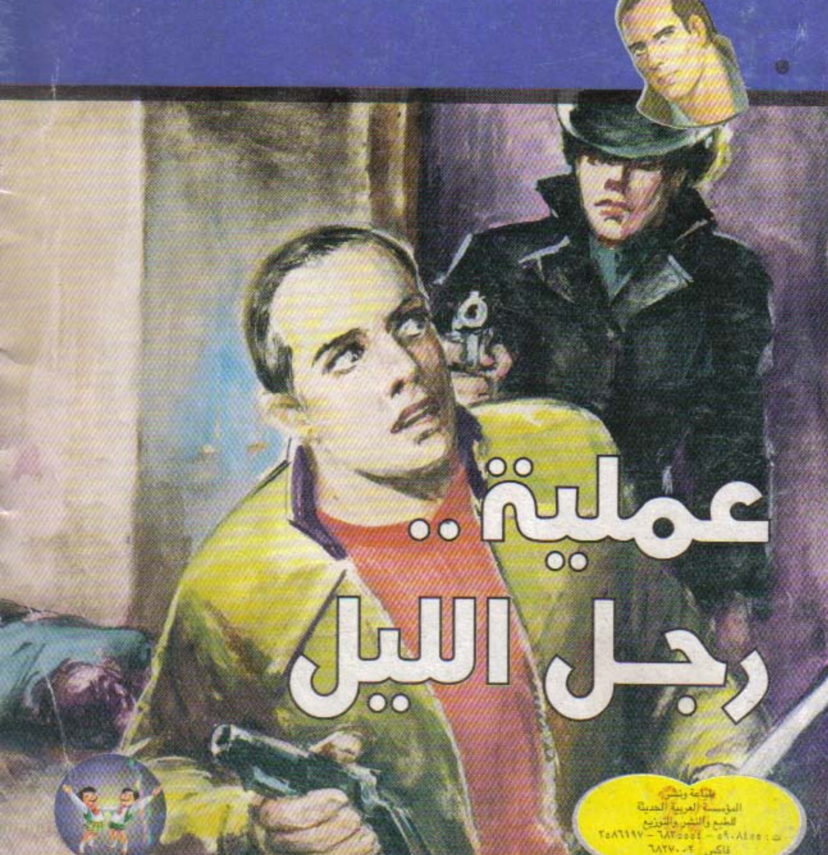
روايات مصرية للجيب

المكتب 17

إدارة المهام الخاصة

18



عملية .. رجل الليل

مفاجآت مذهلة .. مفاجآت رهيبة .. مفاجآت لم تكن فى الحسبان .. مفاجآت مذهلة .. مفاجآت رهيبة .. مفاجآت لم تكن فى الحسبان .. مفاجآت مذهلة .. مفاجآت رهيبة .. مفاجآت لم تكن فى الحسبان .. مفاجآت مذهلة .. مفاجآت رهيبة .. مفاجآت لم تكن فى الحسبان .. مفاجآت مذهلة .. مفاجآت رهيبة .. مفاجآت لم تكن فى الحسبان .. مفاجآت مذهلة .. مفاجآت رهيبة .. مفاجآت لم تكن فى الحسبان !!



الثمن فى مصر ٢٥٠

وما يعادله بالدولار الأمريكى فى سائر الدول العربية والعالم



د. محمد سليمان عبد المالك

المكتب 17

إدارة المهام الخاصة

★★★★

سلسلة روايات عصرية للشباب حافلة بالمغامرة والإثارة والتشويق



مطابع

العدد القادم

عملية المشروع السرى

١ـ بداية أخرى ..

ألقت (كارلا روبرتس) ، المراسلة الصحفية الشهيرة بنفسها على مقعد مقابل لمكتب زميلها محرر نشرة الأخبار ، هاتفة فى ضجر :

ـ لقد ضقت ذرعًا بهذا المكان ..

رفع زميلها الأشقر عينين باسمتين من فوق حاسبه النقال ، وتوقفت أنامله عن ضرب الأزرار ليقول :

ـ إذا كانت نجمة إعلامية فى حجمك تقول هذا ، فيجب أن أقتل نفسى على الفور ..

أشاحت بيدها فى ضيق قائلة فى امتعاض :

ـ دع عنك حديث النجومية هذا ، فما النجومية إلا قشرة لامعة تجهل هى نفسها ما تحويه فى باطنها ..

شبك كفيه ، واتسعت بسمته وهو يميل نحوها مغمغمًا :

ـ أحيانًا أشعر أن حياة النجوم مليئة بالتناقضات غير المفهومة ..

زفرت فى ضيق ، ثم فوجئ بها تنهض من على المقعد وتسند يديها على سطح مكتبه ، مشيرة إلى نقطة ما خلف ظهره ، وهاتفة بكل ما فى الدنيا من انزعاج :

ـ إذا كنت تفهم كل ما فى الدنيا باستثناء تناقضات النجوم النفسية ، حاول أن تفهمنى إذن ما يعنيه هذا يا عزيزى (توم) !

بحركة لا إرادية ألقى (توم) نظرة سريعة على النقطة التى تشير إليها خلف ظهره ، واتسعت بسمته عندما رأى اللوحة الكبيرة التى تحمل اسم وشعار المحطة التليفزيونية الإخبارية التى يعملان بها ..

محطة (فى بى سى نيوز) ، والشعار : نحن نبحث عن الحقيقة ..

حرك (توم) رقبته ليعاود النظر إلى (كارلا) مجددًا ، وقد احتقن وجهها واحمرت عيناها حنقًا ، بينما صالة التحرير عبر الزجاج خلف كتفيها تعج بالحركة والحياة فى فوضى منظمة ، كأنها مملكة النمل ..

ـ لا أجد سببًا مقنعًا لهذه الثورة التى تعتريك ..

قالها (توم) هازًا كتفيه ومحاولاً التهوين ، إلا أن التأثير أتى عكسيًا :

ـ فى وجود شخصية مثل (إيفان) على رأس الهرم الوظيفى هاهنا لا تسألنى عن أسباب ..

صاحت بها فى ثورة كادت معها أن تلفظ حنجرتها ، وهى تعاود إلقاء جسدها على المقعد أمامه ، فأرسل (توم) ببصره هذه المرة إلى نهاية ممر قصير فى جانب صالة التحرير من وراء الزجاج ، وهز رأسه فى تفهم قبل أن يهمس فى حذر :

ـ لقد رفض إذاعة أحد تقاريرك الإخبارية مرة أخرى إذن ..

حاولت (كارلا) أن تتمالك نفسها وهى تقول :

ـ المشكلة ليست فى الرفض نفسه ، فهو مدير المحطة الرئيسية هنا فى (نيويورك) ، ومن حقه أن يقرر مصير المواد التى ترد إليه سواء بالعرض أو بالرفض ..

علق (توم) فى استغراب :

ـ ما دمت تدركين هذا فلماذا أراك متذمرة هكذا ؟!

فشلت (كارلا) فى الحفاظ على تمالكها لنفسها وهى تهتف منفعلة :

ـ لأن من حقى أنا الأخرى ، بل أبسط من حقوقى فى الواقع أن أعرف سبب رفض إذاعة تقرير مرئى عن حرب

(العراق) ، وانتهاكات القوات الأمريكية فى التعامل مع الأسرى ، أراه سبقًا سيضيف إلى رصيد الشبكة الكثير ..

عاد (توم) يعلق فى استغراب :

ـ ربما كانت هناك سياسات أخرى غير معلنة لا نعلم عنها شيئًا ..

غمغمت (كارلا) فى غيظ وهى تغمض عينيها :

ـ لا أظن أن هذا النوع من التعامل يناسبنى ..

ارتسمت الابتسامة مجددًا على شفتى (توم) وهى يقول :

ـ لا تقولى إنك مستعدة للتخلى عن المرتب الخيالى الذى تتقاضيه هنا ، بالإضافة للنجومية التى تحققها لك الشبكة ، من أجل رفض إذاعة بعض التقارير ..

قالت دون أن تفتح عينيها :

ـ أعتقد أننى مستعدة لنوع كهذا من التخلى ..

اكتست بسمته بمغزى عميق مستفز ، وهو يسألها فى كلمة واحدة :

ـ حقًا ؟!

فتحت (كارلا) عينيها فجأة ، ونظرت فى عينيه مباشرة لتقول :

ـ لقد كلفت محامىّ الخاص بإعداد خطاب استقالة أنيق بالفعل ..

تلاشت البسمة من على وجه (توم) ، وردد مبهوتًا نفس الكلمة الواحدة :

ـ حقًّا ؟!

نظرت إلى أسفل ، كأنها ندمت على التفوه بهذه الحقيقة قبل الأوان ، وقالت بصوت خفيض :

ـ إن (إيفان) قد وقّع أوراق مهمتى الرسمية القادمة ، وهى مهمة روتينية بحتة ، مجرد مشاركة فى الوفد الإعلامى المرافق للسيد (جيمس بامفورد) المستشار القانونى للرئيس فى رحلته صباح الغد إلى (إسبانيا) ، أى أنه بطريقة لطيفة يريد إشعارى بمكانى الجديد على الرف .. فكرت مرارًا فى رفض هذه المهمة المهينة ، لكنى تريثت وقررت قبولها ، كنوع من رد الجميل الأخير للمحطة التى صنعت نجوميتى ، ولكن بعد عودتى سوف أقدم الاستقالة التى يتوق هو إلى استلامها أكثر مما أرغب فى تقديمها ..

سألها (توم) ولما يفق من ذهوله :

ـ وماذا ستفعلين بعدها ؟!

قالت دون أن ترفع عينيها ، ونبرتها تحمل إحساسًا وجدانيًّا عميقًا :

ـ سأعمل مراسلة حرة بالقطعة لأى محطة تليفزيونية تقبل إذاعة تقاريرى ، أو على الأقل ترفضها بمبرر ، وربما اتجهت لتأليف الكتاب الذى أحلم به ، أو إخراج فيلم تسجيلى من خلال المواد الأرشيفية التى أواظب على جمعها منذ بداية عملى كمراسلة ، على طريقة (مايكل مور)(*) مثلا !

تحجرت عينا (توم) العابستين وهو ينظر إليها فى عجز عن التعليق ، بينما نهضت (كارلا) متحاملة على نفسها ، ونظرت مباشرة فى عينيه قائلة فى تأثر :

ـ .. لا تخبر أحدًا بهذا الأمر يا عزيزى ، إنه سر بيننا حتى أعود من مهمتى فى العاصمة الإسبانية ..

* * *

(*) مايكل مور : مخرج أفلام تسجيلية أمريكي شهير، حصل على جائزة أوسكار عام ٢٠٠٢ عن فيلمه Bowling for Columbine ، وحقق فيلمه الثاني Fahrenheit 9/11 أعلى إيرادات في تاريخ السينما التسجيلية في العالم عام ٢٠٠٤، متجاوزًا المئة مليون دولار، وهو معروف بآرائه المناهضة لسياسات (جورج بوش الابن) والمحافظين الجدد، وضد حرب العراق، وله ثلاثة كتب حققت أعلى مبيعات في سنوات صدورها ..

تساءل السيد (مؤنس) رئيس القسم العلمى بإدارة المهام الخاصة ، المكتب (١٧) ، بنبرات مرتجفة :

ـ هل معنى هذا أن حالتها تتحسن يا دكتور (نبيه) ؟!

أجابه الدكتور (نبيه) صاحب الشعر الأشيب الكثيف ، والعينين الحادتين خلف النظارة الطبية ذات الإطارات الفضية ، فى وقفتهما على جانب ممر المستشفى الملحق بالإدارة :

ـ لا أستطيع الجزم بهذا للأسف ..

هتف السيد (مؤنس) فى لهفة ، مختلسًا نظرة إلى باب الغرفة عند نهاية الممر :

ـ لكنك قلت إنها بدأت تردد بعض الكلمات التى ربما تدل على ...

قاطعه الدكتور (نبيه) وهو يقلب أوراق الملف فى يده :

ـ لقد بدأت فى النطق منذ أسبوعين بكلمات متفرقة لا رابط بينها ، وبالبحث تبين أن الكلمات لها علاقة بحياتها الخاصة بالفعل ، لكن ...

أغلق الدكتور (نبيه) الملف ، وتنهد مغمضًا عينيه للحظة قبل أن يفتحهما قائلاً وهو يهز رأسه يمنة ويسرة :

ـ .. ليس معنى هذا أنها قد استعادت ذاكرتها ..

أطرق السيد (مؤنس) ناظرًا بعينيه إلى الأرض ، وهو يغمغم :

ـ مسكينة ..

ربت الدكتور (نبيه) على كتفه فى تعاطف ، قائلاً :

ـ لقد تعرضت ابنة أختك (دينا واصف) لتجربة علمية فى مهمتها الأخيرة ، يعلم الله ـ سبحانه وتعالى ـ وحده إلى متى سيدوم تأثيرها على ذاكرتها ، ونحن نحاول القيام بجلسات تحليل نفسى وعلاج معرفى بحيث لا نعرضها لصدمة أو انتكاسة قد تؤثر فى المخ تأثيرًا سلبيًا لا شفاء منه ، خاصة وأن صاحب التجربة نفسه ـ الدكتور المجرى (رومانو ماركوس) ـ مازال يجرى أبحاثه مع فريق الإدارة العلمى لعكس أثر تجربته التى قام فيها بمحو الذاكرة ، عن طريق استخدام المجالات الكهرومغناطيسية(*) ..

عض السيد (مؤنس) على شفتيه ، وقال فى تأثر :

ـ أعلم ، فهذه الأبحاث المعاكسة تجرى تحت إشرافى الشخصى فى القسم العلمى يا دكتور ..

(*) راجع العدد السابق (العملية رقم ١٧) ..

ـ لقد التقيت بالدكتور (رومانو) ، ورغم هيئته الرثة وارتباكه الاجتماعى إلا أن عقليته عبقرية ، وأستطيع الجزم بأنه يعرف ما يفعله ، وقد يتوصل للعلاج قريبًا ..

قالها الدكتور (نبيه) بلهجته العملية ، فرد السيد (مؤنس) فى أسى :

ـ لكن الفتاة تعانى ، فبالإضافة لذهولها الذى يفطر القلب ، هناك تلك التشنجات التى تداهمها من آن لآخر ..

عدل السيد (مؤنس) من وضع نظارته على عينيه باستخدام سبابته ، وقال :

ـ إنها تشنجات تشبه ما يحدث لمرضى الصرع بسبب اختلال نظام التوصيل الكيميائى والكهربى فى الخلايا العصبية ، ونحن نسيطر عليها بنفس الطريقة التى نسيطر بها على تشنجات مرضى الصرع ، حقنة الفاليوم ، الخبر السار أنه لم تداهمها أى تشنجات منذ عدة أيام ..

نظر السيد (مؤنس) فى عينى محدثه مباشرة قائلاً فى تعجب :

ـ لكنك قلت إنها لا تتحسن !

ـ أنا لم أقل هذا ..

قالها الدكتور (نبيه) ملوحًا بكفيه ، ثم إنه تابع :

ـ .. ما أعنيه أن التشنجات قد تعود فى أى وقت ، لا يوجد ما يمنعها من الحدوث ..

قبل أن ينهى عبارته ، انفتح الباب فى نهاية الممر ، وانفجر الهتاف المرتاع :

ـ النجدة .. الحقونا .. نحتاج إلى المساعدة هنا يا أبى ..

كانت (ولاء) ـ ابنة السيد (مؤنس) ، وابنة خال (دينا واصف) بطبيعة الحال ـ تقف عند الباب ووجهها ينطق بالجزع ، فهرع إليها الرجلان على الفور ..

ـ ماذا حدث ؟!

سأل السيد (مؤنس) لاهثًا ، فواصلت (ولاء) هتافها ، وهى تشير إلى داخل الغرفة ، حيث يهتز السرير بمن فوقه :

ـ (دينا) .. إنها ...

ولم تقو على الإكمال ، لكن المشهد كان أبلغ من أى كلمات تقال ..

كان جسد (دينا) فى رداء المستشفى الأبيض ينتفض فوق السرير ، فى تشنجات صرعية بالغة الوضوح والقوة ..

على الفور اندفع الدكتور (نبيه) ، وأخرج من الدرج المجاور لها محقنًا وقنينة دواء ، فكسر القنينة وأدخل المحقن بداخلها ليسحب السائل الشفاف ، ثم غرسه في ذراعها ..

بدأت حدة التشنجات في الخفوت ، مع اتساع عيني السيد (مؤنس) الذاهلتين ، والدموع المنهمرة من عيني (ولاء) ، والنظرة الغريبة من وراء نظارة الدكتور (نبيه) ..

نظرة تشبه شعورًا بالذنب !

* * *

في جنوب العاصمة الإسبانية (مدريد) يقع الحي الصناعي الحديث الذي أنشئ في الربع الأخير من القرن العشرين ، والذي يتسم بالشوارع الواسعة المصممة على الطريقة الأمريكية ، والمنازل الواسعة ذات الحدائق وحمامات السباحة على الطريقة الأمريكية ، والمباني الشاهقة التي تناطح السحاب على الطريقة الأمريكية أيضًا ..

أحد هذه البنايات يسمى (برج بيكاسو) إحياء لذكرى الفنان الإسباني الأشهر ، وقد تم تصميمه على طراز معماري مشابه لبرجي مركز التجارة العالمي اللذين سقطا في الحادي عشر

من سبتمبر ، ويحوي مقار العديد من الشركات العالمية الكبرى ذات رءوس الأموال الضخمة ..

في الطابق الأخير يقع مقر (المجموعة المالية المتحدة المحدودة) ، UFG ltd . للاختصار ، ويبدو أن هذا النهار الشتوي الغائم المنذر بالأمطار لم يكن نهارًا عاديًا في هذا المكان ، الذي بدا وكأنه قد استحال قطعة من جمر ملتهب ، مما تنافر مع الطقس البارد الرهيب الذي يجمد الأوصال في الخارج ، ففي غرفة الاجتماعات الكبيرة الملحقة بمكتب رئيس مجلس إدارة الشركة كانت الهمهمات تملأ الجو مع أبخرة المشروبات الصباحية وسحابات دخان السجائر ، وكان الحاضرون يميلون بالهمسات على آذان بعضهم ، وفي العيون إرهاق السهر والاستيقاظ المبكر ، وعقارب الساعات السويسرية الباهظة تشير إلى التاسعة صباحًا إلا خمس دقائق ..

قال أحد الحاضرين وهو يتثاءب :

ـ يبدو أن مجلس الإدارة قد اكتمل ، لماذا لم يبدأ الاجتماع بعد إذن ؟!

أجابه الجالس بجواره وهو يمسح زجاج نظارته بمنديل :

ـ إننا فى انتظار الرجل الكبير على ما يبدو ..

ـ الرجل الكبير ؟!

قالها الأول مستنكرًا ، ثم همس وهو يشير بطرف خفى إلى الرجل الذى يتصدر المائدة العريضة ، والذى تنم ملامحه عن التوتر الشديد ؛ إذ يعاود النظر فى ساعة معصمه بين الفينة والفينة :

ـ .. ظننت السنيور (إنريك) هو الرجل الكبير هاهنا !

وضع الجالس إلى جواره النظارة فوق أنفه ، وقال فى هدوء دون أن ينظر إلى محدثه :

ـ صحيح أنه رئيس مجلس الإدارة ، لكنى أتحدث عن الرجل الكبير الذى يملك ثلاثة أرباع أسهم الشركة تقريبًا ، والذى بسببه مازال السنيور (إنريك) نفسه يتقاضى راتبه الشهرى الباهظ ..

تدخل ثالث فى الحوار الهامس بنفس النبرة :

ـ لعلك تقصد الممول الخفى الذى يأتى إلى هنا ويغادر سرًا دون أن نشعر به ..

ثم طرف رابع :

ـ الغريب أنه يريد أن يرى أعضاء مجلس الإدارة كلهم هذه المرة ، وليست زيارته مجرد اجتماع مغلق مع السنيور (إنريك) مثلما يحدث دائمًا ..

ابتلع الرجل الأول ريقه فى قلق ، ثم قال :

ـ أخشى أن يكون الأمر متعلقًا بالخسائر التى منيت بها الشركة هذا العام ..

قال الرزين الجالس إلى جواره وهو يمط شفتيه :

ـ لا أعتقد ، فالشركة تحقق نفس الخسائر الفادحة كل عام ، ومع هذا يتم تسوية الحسابات الختامية قبل نشرها متضمنة نسب ربح معقولة ، مما يكفل لها الاستمرار فى السوق العالمية ..

تدخل طرف خامس :

ـ عذرًا ، لكن الفكرة ترد فى خاطرى كلما أثيرت هذه النقطة أمامى ، ألا يعد هذا اقتصاديًا غسيل أموال ؟!

هز الرزين كتفيه قائلاً فى لا مبالاة :

ـ فليكن ، ما الذى يضيرنا ما دمنا نتقاضى أرباحنا فى النهاية وننعم بحياتنا الرغدة ؟!

أنهى عبارته مع معانقة عقرب الثوانى لعقرب الدقائق فوق النقطة الثانية عشرة على دائرة الساعة ، بينما عقرب الساعات مستقر فوق الرقم تسعة ، ومع انفتاح باب غرفة الاجتماعات ليبرز من خلفه الرجل المنتظر فاردًا ذراعيه مع مصراعى الباب ، ومن خلفه سكرتيرة مكتب رئيس مجلس الإدارة الحسناء ..

استدارت الأعناق نحوه ، وتلاشت الهمهمات كأن لم تكن ، وحده صوت السكرتيرة الخفيض أتى من خلفه بهمس بدا كالهتاف ، فى الصمت الذى شمل المكان :

ـ السنيور (روى باور) ..

دقت خطواته إلى داخل غرفة الاجتماعات ، وأغلقت السكرتيرة الباب من خلفه ، وتابعته أعناق الحضور فى اتجاهه إلى مقعد رئيس مجلس الإدارة ، الذى نهض واقفًا على الفور ، فتبعه الجميع بالنهوض ، غير أن الرجل المنتظر لم يجلس ، وأشار لهم بكفه أن يجلسوا ، ففعلوا صاغرين ، بما فيهم رئيس مجلس الإدارة نفسه ..

جميعهم كانوا يتأملون الوجه المربع الحافل بالتجاعيد والترهلات بين القسمات المتجهمة ، والمعطف الأنيق إلى حد الافتعال ، والسوار الذهبى حول المعصم الأيسر بالحرفين المنقوشين فوقه RP ، والنظرات الحارقة ..

للثروة هيبتها التى تحنى الجباه ، وللنفوذ قوته التى تسقط الرهبة فى أعتى القلوب ..

نظر الرجل الكبير مليًا فى الوجوه الشاخصة نحوه ، قبل أن يستدير ويسير خطوات إلى النافذة الزجاجية الكبيرة المطلة على (مدريد) .. ملأ عينيه من قلب العاصمة القديمة فى الجنوب حيث مسارح الفلامنكو وحلبات مصارعة الثيران والكاتدرائيات العتيقة وقصور العصور الوسطى ، وتنهد تنهيدة خفية ، ثم قال بالإنجليزية دون أن يلتفت :

ـ (مدريد) هى محطتى الأخيرة أيها السادة ..

بدت على وجوههم ملامح عدم الفهم ، لكن أيًا منهم لم يجرؤ على السؤال ..

ـ .. لقد طفت بجميع مراكز وفروع الشركات التى أمتلكها فى جميع أنحاء العالم ، وعقدت اجتماعات مع رؤساء وأعضاء مجالس الإدارة ، لأسوى حسابًا فى غاية الأهمية مع الجميع ..

سرت شحنات الكهرباء فى الهواء ، لكن أيًا منهم لم يجرؤ على التعليق ..

ـ .. بل لأسوى حسابى مع الحياة نفسها بوضوح أكبر ..

ثم التفت مواجهًا العيون المتسائلة والحواجب المقطبة والشفاه المطبقة ، وتابع :

ـ .. لقد قررت التقاعد ، والركون إلى حياة الاستقرار فى منتجع بعيد لا يعرفنى فيه أحد ، وسينوب عنى فى تولى مسئولياتى شخص آخر ، أستطيع ائتمانه على أموالى وشئونى ، سترونه هنا كثيرًا فى الأيام القادمة ، بصفته المالك الجديد لأسهم المجموعة عوضًا عنى ..

سرت همهمة محدودة ، وكان التعجب مفهومًا ، فمن ذا الذى يرونه لأول مرة ليحدثهم عن شخص آخر سوف يحل محله فى مركز القيادة ؟!

وحده السنيور (إنريك) رئيس مجلس الإدارة تساءل :

ـ من هذا يا سنيور (باور) ؟!

فأجابه بلهجة رصينة :

ـ شخص أثق به ، وأنهى الآن إجراءات نقل جميع ممتلكاتى باسمه ..

ـ هل تثق فيه إلى هذا الحد ؟!

سأله (إنريك) فى دهشة عارمة ، فهز الرجل رأسه قائلاً :

ـ أجل ..

ثم إنه مد يده إلى جيب معطفه الداخلى ، وأخرج صورة فوتوغرافية عرضها أمامهم متابعًا :

ـ .. إنه ابنى الذى لم أكن أعلم بوجوده ، (ماثيو ريموند باور) ..

عادت الهمهمات تسرى بقوة عارمة ، بينما الصورة فى يده ثابتة فى أعين الجميع ، تحمل وجه شاب حليق الرأس ، مليح القسمات ، باسم الشفتين ، شرقى الملامح ..

شاب كنا نعرفه باسم (عمر زهران) !

* * *

٢ـ أشياء مريبة تحدث ..

قال العميد (منصور حرب) الذى لا يزال يحمل ملامح حادة تليق بصقر عجوز :

ـ اليوم يا سيدى اللواء يختفى (روى باور) فى القاع ، ويظهر على السطح ابنه (ماثيو) الذى صنعناه وصنعنا تاريخه هنا فى الإدارة ..

هز اللواء (عفت حفنى) ـ مدير المكتب (١٧) ـ رأسه فى وهن ، وهو يطالع تقريرًا ورقيًا من خلف مكتبه ، وقال سابحًا بعينيه بين السطور :

ـ نعم ، بعد ثلاثة أشهر تقريبًا من التنقل بين شركاته وقصوره فى جميع أنحاء العالم ، مما كلفنا ثروة طائلة ..

ـ الحساب مدفوع مقدمًا يا سيدى ، من الحسابات البنكية الخاصة بـ (روى باور) نفسه !

تجاهل اللواء (حفنى) تعليق العميد (حرب) ، وواصل حديثه الهادئ فى تأمل :

ـ يبدو أن تنكر تلميذك فى هيئة (روى باور) كان متقنًا بالفعل ، فهو لم يتعرض لأى مصاعب تتعلق بهويته حتى الآن ..

ـ ربما يعود هذا إلى أن (روى باور) لم يكن يظهر كثيرًا أمام أى شخص بقدر يسمح له بالشك فى هيئته إذا تغيرت تغيرًا طفيفًا ، بالإضافة لوسيلة التنكر البسيطة والمحكمة التى ابتكرها الخبراء هنا فى الإدارة ، والمعتمدة على قناع مطاطى متكامل يحيط بالرأس ، ويمكن تركيبه وخلعه بسهولة ، والشريحة الإلكتروبيولوجية التى تحول صوت (عمر) إلى نسخة مطابقة لصوت أى مخلوق ، وقد تم تجريبها وإثبات كفاءتها فى أكثر من عملية سابقة ..

قالها العميد (حرب) ، قبل أن يردف عارضًا الحقائق المتدفقة من عقله إلى لسانه فى سلاسة :

ـ .. لم يكن من المعقول طبعًا أن يستمر به الحال على التنكر مهما كان متقنًا ، لذا تم اختراع حكاية ابنه ، وتمريرها إلى كل الأماكن المتوقع ظهور (روى باور) فيها ، مما يتيح لـ (عمر) أن يظهر فيها بهيئته الحقيقية بعدها ، دون أن يعرض نفسه للخطر ..

ألقى اللواء (حفنى) بالأوراق التى كانت فى يده على سطح المكتب ، معلقًا فى هدوئه الذى يناهز حد البرود :

ـ لكنه قد يعرض الإدارة لخطر انكشاف اللعبة ، عميد (حرب) ..

استطرد العميد (حرب) بهدوء مماثل يناهز حد البرود بدوره :

ـ لقد حاولنا الاحتياط لكل شىء ، فقد قام (عمر) بتسريح كل الحراس والمحيطين بـ (روى باور) فى محال إقامته وتنقلاته ، وتغييرهم بحراس يعملون لصالحنا فى الإدارة ، وهو يتبع قاعدة أمنية واضحة بعدم المكوث فى مكان واحد لفترة تزيد على الأيام الثلاثة ، كما يتحاشى الظهور الإعلامى تمامًا ويتنقل فى طائرات (روى باور) الخاصة و سياراته المصفحة ، ويمدنا بتقرير يومى فى ساعة معينة وبوسيلة تتغير بصفة غير دورية ، صحيح أن خطر الانكشاف يظل قائمًا ، لكنه لا يقاس بما نحققه من مكاسب بوجود أحد رجالنا فى موقع واحد من أثرياء العالم ، ومن المتعاملين فى مجالات غسيل الأموال وتجارة المخدرات والأسلحة وخلافه من أعمال القائمة السوداء ، يمكنك يا سيدى أن تتخيل حجم المعلومات التى يمكننا الحصول عليها من خلال علاقات شخص مثل (روى باور) ، أوراقه ، أسراره ، لقاءاته ، لقد حصلنا على كم رهيب من المعلومات بالفعل وما زلنا ننتظر الكثير ..

ظل اللواء (حفنى) ينظر إليه فى عمق حتى أنهى حديثه ، ثم سأله على الفور :

ـ ماذا عن النسخة الأصلية ؟!

ران الصمت ، قبل أن يجيب العميد (حرب) دون أن يرفع عينيه الناظرتين إلى قدميه :

ـ أعلم أنك تقصد (روى باور) الحقيقى ، إنه لا يزال نزيل قسم خاص من المستشفى الملحق بالإدارة ، تحت إشراف الدكتور (نبيه الزينى) نفسه ..

ظل اللواء (حفنى) ينظر إليه فى عمق ، ثم سأله فى هدوئه الذى يناهز حد البرود :

ـ ألا تعتقد أن أحدًا سيحاول البحث عنه واسترجاعه ؟! ألا يمكن أن يستعيد (روى باور) نفسه الذاكرة وعندها قد نجد أنفسنا فى مركز دائرة العجز ؟!

ران الصمت ، قبل أن يجيب العميد (حرب) رافعًا عينيه ، لينظر فى عينى رئيسه مباشرة :

ـ كل شىء جائز فى عملية كهذه ، سيدى اللواء .. كل شىء جائز !

* * *

هتف العميد (حرب) فى انزعاج :

ـ من أنت ؟! وماذا تفعل هنا ؟!

ارتبك الشاب الأسمر النحيف الذى يرتدى معطفًا أبيض ، أمام باب معدنى موصد بإحكام تعلوه فرجة زجاجية صغيرة مستطيلة ، فى ممر من ممرات المستشفى الملحق بالمكتب (١٧) ، وحاول أن يتحدث لكن الارتباك لم يجعله ينطق بجملة مفيدة :

ـ أنا .. الـ .. فى الحقيقة .. أعنى أننى ...

لكن النجدة أتته من وراء العميد (حرب) بصوت جهورى :

ـ إنه الدكتور (على ضيف) ، أحد تلاميذ الدكتور (نبيه) يا سيادة العميد ..

التفت العميد (حرب) عابسًا فى تجهم إلى (نادر الشريف) بشعره الغزير وشاربه الكثيف وبسمته الأبدية ، فى حين هتف الطبيب الشاب كأنه غريق تعلق بطوق نجاة :

ـ أجل .. أجل .. أنا الدكتور (نبيه) أحد تلاميذ الدكتور (على) .. أعنى أننى الدكتور (على) أحد تلاميذ الدكتور (نبيه) .. إننى أحمل بطاقة هوية وتصريحًا بالتواجد هنا ..

ثم إنه دس يده فى جيب معطفه الأبيض بقوة مزقته ، فطارت بطاقة الهوية البلاستيكية وحطت تحت قدمى العميد (حرب) ، وفى خضم ارتباكه جثا الدكتور (على) على ركبتيه ليحملها ، فى حين ازداد حاجبا العميد (حرب) تقطيبًا ، وهو يتساءل فى استياء :

ـ وكيف يصرح الدكتور (نبيه) بوجود شخص مثلك هنا دون الرجوع إليّ ؟!

وقف الدكتور (على) ينفض غبارًا وهميًا عن ملابسه ، وحاول (نادر) جاهدًا أن يمنع نفسه من الضحك عندما مد (على) يده بالبطاقة إلى العميد (حرب) الذى لم يتناولها ، وأخذ (على) يلهث قائلاً ، وهو يجاهد لجعل حديثه مفهومًا :

ـ لقد كان يقوم بمتابعة الفتاة المريضة فى الطابق الأرضى بعد أن أصابتها التشنجات مجددًا ، وكان سيأتى إلى هنا بنفسه ، غير أن طارئًا أجهله قد جعله يغادر المستشفى ، ويعهد بمتابعة المريض الآخر إليّ ، لأوافيه بتقرير مفصل عنه فور عودته ..

حاول العميد (حرب) أن يهضم الأمر ، وأن يبدو لينًا وهو يسأل الطبيب الشاب معاودًا النظر إلى الباب المعدنى الموصد :

ـ وهل تداهم التشنجات هذا الآخرِ ؟!

ـ كلا ، لكن أشياء مريبة قد بدأت فى الحدوث له مؤخرًا !

قالها الدكتور (على) هازًا رأسه بالنفى ، فكاد حاجبا العميد (حرب) أن يمتزجا وهو يقول :

ـ أشياء مريبة مثل ماذا ؟!

أدلى (على) بتقريره :

ـ مثل نطق بعض الكلمات بلغته الإنجليزية دون رابط بينها ، بعضها مفهوم وبعضها ليس كذلك ، ومؤخرًا أخذ فى الحبو على يديه وركبتيه مصدرًا أصواتًا غريبة ، ومرددًا كلمة واحدة بإفراط ..

ـ كلمة واحدة ؟!

غمغم بها العميد (حرب) ، فعاجله (على) بقول الكلمة :

ـ (تريكس) .. يبدو اسمًا لشىء ما ، استنتاجى أنه اسم كلبه المفضل !

لم يكن (على) يعلم أنه كان محقًا إلى أقصى حد(*) ، هكذا فكر (منصور حرب) قبل أن يعاجله بسؤال جديد :

(*) راجع العدد رقم (١٦) بعنوان (عملية غضب المحيط) ..

ـ هل معنى هذا أن ذاكرته قد بدأت فى العودة له ؟!

هز (على) كتفيه وقال :

ـ الدكتور (نبيه) يقول إن الوقت ما زال مبكرًا على الجزم بشىء كهذا ، بالإضافة إلى أنه يريد استشارة الدكتور المجرى الذى يتابع الحالة معه قبل الوصول لنتيجة حاسمة ..

ـ (نادر) ..

هتف بها العميد (حرب) وانتحى بـ (نادر) ركنًا على الفور ، فيما وقف (على) يرمقهما من بعيد فى ارتباك ..

ـ .. اتصل بالدكتور (نبيه) والدكتور (روماتو) ، أريد رؤيتهما فى مكتبى بعد نصف ساعة على الأكثر حتى أفهم ما يجرى هنا ..

هز (نادر) رأسه فى تفهم ، وهتف بصوت جهورى كاد يزلزل الجدران :

ـ أمرك يا سيدى ..

استوقفه العميد (حرب) قبل أن يهرع لتلبية الطلب :

ـ انتظر ، امنع أى شخص من الاقتراب من هذه المنطقة فيما عداى أنا والدكتور (نبيه) ، الجميع ممنوعون من الاقتراب من هنا بما فيهم أنت ، وعلى وجه الخصوص الدكتور (روماتو) ..

ـ أمرك يا سيدى ..

استوقفه العميد (حرب) قبل أن يهرع لتلبيه الطلب الثانى :

ـ انتظر ..

وأرسل ببصره إلى (على) الذى كان واقفًا يضرب أخماسًا فى أسداس ، متابعًا :

ـ .. أريدك أن تتحرى جيدًا عن (على) هذا ، فربما كان أحدهم يستخدمه من أجل الوصول إلى (روى باور) فى عنبره ، أو على الأقل يحاول معرفة أخباره عن طريقه ..

حاول أن (نادر) أن ينطق ، لكن تعليق العميد (حرب) أسكته :

ـ .. فى عملية كهذه يجب أن يشك المرء فى أصابع يديه ..

ـ أمرك يا سيدى ..

انطلق (نادر) لتنفيذ الأوامر الثلاثة ، واقترب العميد (حرب) من الباب المعدنى متخطيًا (على) ومتجاهلا إياه ، ومن خلال الفرجة الزجاجية المستطيلة نظر إلى الداخل ..

عندها صافحت عيناه مشهدًا عجيبًا ..

(روى باور) ، النسخة الأصلية ، يحبو على الأرض فى ملابس المستشفى البيضاء ..

وهو ينبح !

* * *

اخترقت سيارة الإسعاف بشعار المستشفى الأجنبى على جانبها شارعًا ضيقًا فى حى (الزمالك) ، وتوقفت أمام البناية ذات الطوابق الثلاث وقد أصدرت كوابحها صريرًا مزعجًا ، لينفتح بابا العربة الخلفيان ويهبط منها رجلان فى زى التمريض الرسمى ، يبدو على ملامحهما الشقرة والانتماء الأوروبى الصريح ، وكأنهما يعرفان طريقهما جيدًا حملا محفة معدنية وانطلقا عبر بوابة البناية إلى الأعلى ..

لم يحرك بواب البناية الجنوبى ساكنًا لما يحدث ، وعندما سأله زميله بواب البناية المجاورة :

ـ من هؤلاء ؟!

أجابه :

ـ أأنت أعمى ؟! كما ترى ، إسعاف !

ـ هل هناك مريض فى الأعلى عندك ؟!

ـ يبدو أنه (الخواجة) الذى سكن الشقة الخالية حديثًا ..

فى الأعلى كان الدكتور (رومانو ماركوس) ـ الذى سكن الشقة الخالية حديثًا ـ يقول فى سماعة الهاتف :

ـ حاضر يا سيدى ، سأرتدى ملابسى وأحضر فى الحال ..

وأغلق السماعة ، ناهضًا من على الأريكة بين الكتب الضخمة المفتوحة ، والأوراق المتناثرة فى فوضى؛ هى السمة العامة للشقة التى يسكنها ..

نظر الدكتور (رومانو) إلى هيئته الشعثاء فى مرآة الصالة المتسخة ، وفكر فى أن يأخذ حمامًا ساخنًا لكى يفيق ، بعد أن داهمه النوم وهو مستغرق فى قراءاته كالعادة ..

تثاءب فى كسل وكاد يتجه للحمام ، لكنّ جرس الباب كان أسرع منه ..

فى ظل نعاسه وعدم تركيزه نسى الدكتور (رومانو) أبسط قواعد الأمن التى لا يتعين عليه دراستها فى معهد متخصص : النظر من العين السحرية ، وكان ثمن هذا الخطأ باهظًا ..

فتح الدكتور (رومانو) الباب وفوجئ بهما أمامه ، ممرضى سيارة الإسعاف اللذين لم ينس ملامحهما ، وقد حياه أحدهما بلهجة بلده الأم :

ـ صباح الخير يا دكتور ..

وقبل أن يسعفه ذهنه بالتصرف السليم فى موقف مباغت كهذا ، سقط الدكتور (رومانو) مغشيًا عليه بعد دفقة من رذاذ مخدر كسا وجهه ، أطلقه على وجهه الممرض المزيف ..

تعاون الاثنان على حمله للأسفل فوق المحفة ، وبسرعة خارقة انغلق عليهم مصراعا باب العربة الخلفية ، وانطلقت السيارة مصدرة صوت احتكاك الكاتشوك المزعج بالأسفلت ..

ـ ألم أقل لك ؟! إنه الخواجة الذى سكن الشقة الخالية حديثًا !

* * *

انطلق صوت المذيع الأجش عبر التليفزيون ، يعلق على الصور الإخبارية المتتابعة :

ـ وصل السيد (جيمس بامفورد) المستشار القانونى للرئيس الأمريكى والوفد المرافق له صباح اليوم إلى العاصمة

الإسبانية (مدريد) ، فى جو ملبد بالغيوم ومنذر بالأمطار ، وكان فى استقباله السيد وزير الخارجية الإسبانى ، وقد اجتمع الطرفان فى مقر وزارة الخارجية وتباحثا حول سبل تنمية العلاقات السياسية والاقتصادية بين البلدين ، كما تطرقا إلى حتمية تكاتف الجميع فى الحرب العالمية ضد الإرهاب ، وضرورة اتباع وسائل أكثر فاعلية فى تعقب الإرهابيين والكشف عن العمليات الإرهابية قبل وقوعها ، هذا وينتظر أن يجتمع السيد (بامفورد) غدًا صباحًا بالملك (خوان كارلوس الأول) ـ ملك (إسبانيا) ـ فى القصر الملكى ..

على الشاشة تتابعت صور وصول الوفد فى المطار ، واللقاءات الثنائية والابتسامات الدبلوماسية أمام الصحفيين وكاميرات التصوير ، لكن أحدًا فى الجناح الفاخر بفندق (كارلتون) فى قلب العاصمة (مدريد) لم يكن يتابعه باهتمام ..

أمام المرآة كان وجه (روى باور) ينظر إلى نفسه فى عمق ، قبل أن تمتد اليدان وتنزعان قناع المطاط من الخلف ، ليظهر الوجه الحقيقى أسفله ..

وجه (عمر زهران) ..

وضع (عمر) القناع فى عناية على حامل خاص به أمام المرآة ، بجوار السوار الذهبى ذى الحرفين المحفورين فوقه ، وأخذ ينظر إلى القناع الساكن مليًّا كأنه يناجيه ، أو يناجى نفسه :

ـ ثلاثة أشهر وأنا أنت .. وأنت أنا .. والآن ، تنتهى رحلتك لتبدأ رحلتى ..

أمسك (عمر) بأداة رفيعة وطويلة من فوق المنضدة القريبة ، ودسها فى فمه ، ثم أخرجها وقد علقت بطرفها قطعة ضئيلة من المعدن ، وضعها بجوار الوجه قائلاً :

ـ .. الآن ، أستعيد صوتى الحقيقى أيضًا ..

دق قلبه فى وجل ، وتدفقت الذكريات والخواطر فى رأسه ، لكنه لاحظ شيئًا غريبًا فى عمق المرآة التى ينظر فيها ، فانقطع سريان الذكريات والخواطر ..

شىء هناك ، عند باب الحمام الملحق بالغرفة ..

استدار واتجه نحوه ، واتسعت عيناه لما رأى ما رأى ..

خنجر مرشوق فى خشب الباب ، وأسفله ورقة لا تحوى الكثير من الكلمات ..

(انتظرنى ، فأنا قادم) ..

والتوقيع : رجل الليل !

وفجأة ، وقبل حتى أن يفكر فى معنى ما يقرؤه ، سمع صوت الارتطام المباغت فى الخارج ، من وراء باب غرفته الموصد ..

دق قلبه أكثر ، واستشعرت حواسه الخطر الوبيل ..

دنا من درج الخوان الملاصق للسرير ، وفتحه على الفور ، فى لحظة سماعه لصوت الارتطام الثانى بالخارج ..

حمل (عمر) المسدس الرابض فى قلب الدرج المفتوح ، وبحذر شديد دنا من الباب الموصد دون أن ينبته إلى أنه يحمل الخنجر فى اليد الأخرى ، ومع دنوه سمع صوت أزيز مكتوم ، ثم ..

ارتطام ثالث ..

ما الذى يجرى هناك ؟!

صمت تام ، كأن أصواتًا لم تصدر قبل لحيظات ..

المفترض أن الحارسين الشخصيين المصاحبين له فى رحلته هذه ، والمكلفين بالمهمة من قبل الإدارة ، يقفان الآن وراء الباب فى بهو الجناح الفاخر ، لكن ..

ليس هناك ما يدل على وجودهما حتى ..

لا أدنى صوت بالخارج ..

ليس من أنفاس تشير إلى وجود أحياء ..

فكر (عمر) مليًا ، قبل أن يقرر ، وينفذ قراره على الفور ..

فتح الباب بحذر ، وأطل منه برأسه ، فهاله ما رأى ..

دماء ..

جسدا الحارسين الشخصيين المرافقين له ملقيان على الأرض ، أحدهما اخترقت رأسه رصاصة من الخلف ، والآخر من الصدغ ، ودماؤهما تلوث الأثاث والجدران من حولهما ..

وهناك جثة ثالثة ..

جثة ملقاة على الأرض بين الحارسين ، لرجل ملقى على وجهه لا يستطيع من مكانه تبين ملامح وجهه ، والرصاصة قد اخترقت رأسه من الأمام على ما يبدو ..

فكر (عمر) مليًا ، قبل أن يقرر، وينفذ قراره على الفور ..

لقد دنا من جثة الرجل الثالث الدخيلة فى بطء ، مشهرًا مسدسه أمامه تحسبًا لأى حركة غادرة ، لكى يحاول أن يراه ..

وعندما أصبح على مرمى حجر منه ، عندما مال فى بطء لكى يقلبه نحوه حتى يستطيع أن يرى وجهه ، عندها فقط ...

عندها فقط شعر بماسورة المسدس الباردة التى التصقت بقذاله من الخلف ..

وعندها فقط شم رائحة العطر النفاذ القوى ..

عطر (ديور) النسائى الدسم ..

ـ ألق بسلاحك ..

صوت نسائى ناعم ، يتحدث الإنجليزية بلكنة فرنسية واضحة ، فرنسية لا إسبانية ، يستطيع (عمر) تمييز الفارق بوضوح ..

ـ .. بسلاحيك للدقة ..

عندها فقط انتبه (عمر) إلى أنه يمسك بالمسدس فى يد ، وبالخنجر فى اليد الأخرى ، فابتسم من نفسه ساخرًا ، وقال مخاطبًا المرأة التى لم يرها بعد :

ـ لا أعتقد أن هذا هو كل ما تريدينه ..

سمع صوت جذب إبرة الأمان ، وأحس بفوهة المسدس تغوص فى رأسه أكثر :

ـ بسرعة من فضلك ..

هذه المرأة لا تمزح :

ـ على رسلك ، سأفعل ..

وألقى بسلاحيه على الأرض ، ثم رفع يديه عاليًا سائلا بنفس الروح المتهكمة :

ـ .. الآن هل يمكننا التفاهم ؟!

أتاه صوتها الإنجليزى المدهون بالزبدة الفرنسية :

ـ الآن ستتأبط ذراعى وتذهب معى لمقابلة من أرسلنى إليك ، وحذار من الحركات المتهورة ؛ لأننى سأصوب المسدس من أسفل معطفى إلى صدرك مباشرة ، ولن أتوانى عن إطلاق النار عند أقل بادرة تهور ..

ـ هل يمكننى الاستدارة نحوك الآن ؟!

صوتها أجابه بالفرنسية :

ـ بالتأكيد ..

استدار فى بطء ، ورآها ..

رفيعة جـدًا وقصيرة القامـة جدًا ، ترتـدى معطفًا أسود يغطى تفاصيل جسدها تمامًا ، وقبعة فرنسية سوداء تخفـى شعرها ، ولا تضع على وجهها إلا طـلاء الشفاه القرمـزى الداكن ، ومسدسها مشهر فى وجهه مباشرة ..

الخلاصة : لا يمكنك اتهامها بالجمال على الإطلاق ، خاصـة مع وجود مسدس فى يدها تكاد فوهته أن تلامس أنفك ..

سألها (عمر) وقد تضاعف التهكم فى نبراته :

ـ من أرسلك إلىّ ؟! ذلك المدعو رجل الليل ؟!

أجابتـه وهـى تنظر بعينيهـا للمصعد الـذى بـدأت أرقامـه المضيئة فى الاقتراب منهما :

ـ ستعرف عندما نصل ، كل ما يمكننى قولـه لك ، إنـه شخص يتوق إلى لقائك منذ زمن بعيد ، هكذا طلب منى أن أبلغك ..

ـ سؤال أخير ..

ثم تساءل (عمر) :

ـ .. هل أنت من أطلق النار على حارسىّ ؟!

رن جرس وصـول المصـعد ، وانفتـح مصراعاه بالفعل ، فأشارت له الفرنسية الضئيلـة بـأن يسبقها بـالدخول إليـه ، فلم يكن أمامه سوى الامتثال ..

دون أن يحصل على إجابة ..

* * *

٣ـ مهمة فريدة من نوعها ..

اندفع (نادر الشريف) مقتحمًا مكتب العميد (منصور حرب) ، وملامح وجهه تنطق بكارثة محققة وقعت أو ستقع ..

ـ سيادة العميد ..

هتف بها وهو يلهث ، فرفع العميد (حرب) عينيه الحادتين من فوق الأوراق التى يدرسها بين يديه ، قائلاً فى لهجة حازمة :

ـ مضت أكثر من نصف ساعة ، عزيزى (نادر) ..

ـ أعلم يا سيدى ، ولكنه الدكتور (رومانو) ..

ـ ماذا عنه ؟!

سأل العميد (حرب) وقد حدس كنه الكارثة ، التى أكدها جواب (نادر) بعد أن ابتلع ريقه الجاف :

ـ تم اختطافه من منزله !

هتف فيه العميد (حرب) كالصاعقة :

ـ ماذا تقول ؟! كيف ؟!

ـ مازلنا ندرس الأمر يا سيدى ، البواب يقول إن سيارة إسعاف قد حملته منذ قليل ، وأن الممرضين والسائق يحملون ملامح أجنبية شقراء ..

ـ كارثة ..

صاح بها العميد (حرب) وقد تفجرت ينابيع الغضب الساخنة فى أعماقه ، ثم إنه زوى حاجبيه وهو يغمغم بلهجة أخافت (نادر) نفسه :

ـ .. يريدون الوصول لـ (روى باور) بالتأكيد ..

ثم إنه التفت نحو (نادر) يسأله بعينين تموج فيهما مردة جهنم :

ـ .. هل تحريت جيدًا عن الطبيب الشاب الذى رأيته أمام عنبر (روى باور) ؟!

هز (نادر) رأسه فى قوة مبالغ فيها ، وأشار إلى باب غرفة المكتب المغلق هاتفًا :

ـ إنه واقف بالخارج الآن أمام مكتبك يا سيدى ، وقد وقد استجوبته حول الحادث فقال إنه لم ير الدكتور (رومانو) فى حياته مسبقًا ..

ـ ماذا عن الدكتور (نبيه) ؟!

تساءل العميد (حرب) وهو يلملم الأوراق المتناثرة فوق مكتبه ، فعض (نادر) على شفتيه قائلاً فى خيبة أمل :

ـ لم نستطع الوصول إليه ، فهو لا يرد على هاتفه المحمول ..

نهض العميد (حرب) قائلاً فى حسم :

ـ اعثر عليه بأى وسيلة ، وكثف الحراسة حول عنبر (روى باور) ، أما بالنسبة للطبيب الشاب فسأقوم باستجوابه بنفسى ..

وانطلق كالسهم نحو باب الغرفة ، وفتحه ليجد نفسه فى مواجهة السيد (مؤنس) رئيس القسم العلمى ، الذى يمسك بورقة فى يديه ، ويقول :

ـ عذرًا ، كنت سأطرق الباب لأن لدى سؤالاً مهمًا يا سيادة العميد ..

ـ ليس الآن يا سيد (مؤنس) ..

وأرسل العميد (حرب) بنظرة حارقة إلى الفتى النحيل الأسمر ، الواقف يرتجف فى خلف كتفى السيد (مؤنس) ، ثم تابع فى غمغمة رهيبة :

ـ .. أمامى مهمة لا تحتمل التأجيل ..

هتف السيد (مؤنس) محتجًا :

ـ لكن الأمر يتعلق بـ (دينا) ..

سأله (نادر) :

ـ هل أصابتها التشنجات مجددًا أم ماذا ؟!

عاد السيد (مؤنس) يهتف ونبرة الاحتجاج فى كلماته تعلو :

ـ لا أعرف ، فهى غير موجودة فى غرفتها للأسف ..

عقد العميد (حرب) حاجبيه سائلا فى تحفز :

ـ ماذا تعنى أنها غير موجودة فى غرفتها ؟! أين ذهبت ؟!

ـ هذه أيضًا لا أعرفها ، وبصفتى خالها وولى أمرها الحالى أطالب بالتحقيق مع الدكتور (نبيه الزينى) الذى وقع بنفسه على تصريح نقلها إلى مستشفى آخر ، دون أن يستأذننى أو حتى يخطرنى ..

ثم لوح بالورقة فى يده وهتافه المحتج يعلو ويعلو :

ـ .. تفضل ، هذا هو التصريح يا سيادة العميد ..

تناول العميد (حرب) الورقة ونظر إليها مليًا ، وملأ عينيه

من توقيع الدكتور (نبيه) الذى يعرفه جيدًا بحكم عملهما معًا منذ فترة طويلة ، ثم عقد حاجبيه ونظر إلى (على) الذى ازداد جسده النحيل ارتجافًا ..

لقد كان مخطئًا إذن ..

كان عليه أن يشك من البداية فى آخر من يمكن أن يخطر له على بال ..

الدكتور (نبيه) نفسه !

* * *

هزم الرعد فى قلب سماء (مدريد) الحبلى بالسحب الرمادية الكثيفة ، وشقت السيارة الصغيرة طريقها فى الشوارع الضيقة المبتلة ، التى فرغت من المارة والمتجولين رغم أن الساعة تشير إلى منتصف الظهيرة تقريبًا ..

ـ يبدو أن الطقس سيئ للغاية ، أليس كذلك يا رفاق ؟!

قالها (عمر زهران) بالإنجليزية داخل السيارة ، وهو يبتسم فى أريحية ، فى جلسته بين رجلين مفتولى العضلات فى زى رسمى كامل ، وسماعات أذنية ، وملامح متجهمة ، ومسدسين مصوبين إليه فى تحفز ، رغم وجود العصابة القماشية السوداء التى تغطى عينيه ، والقيود المعدنية التى تحيط بمعصميه ..

ـ .. أين ذهبتِ أيتها الجميلة الفرنسية ؟! إنك هنا ، أستطيع أن أشم رائحتك على مبعدة ميل ..

قالت المرأة الضئيلة المتشحة بالسوداء التى اتخذت مقعدها أمام عجلة القيادة :

ـ حاول الحفاظ على الهدوء حتى نصل أيها السيد ..

رفع (عمر) معصميه المقيدين إلى أعلى وهو يهتف فى سخرية :

ـ كم تشعرنى هذه الاحتياطات الأمنية القصوى بأهميتى ، إنكم تدفعوننى إلى الغرور دفعًا ..

أنار البرق السماء للحظة ، مع ضغط الفرنسية لدواسة الوقود ، فزادت سرعة السيارة إلى حد شعر به (عمر) رغم عينيه المعصوبتين :

ـ .. حذار يا جميلتى ، فالكوابح لا تعمل جيدًا فى الشوارع المبتلة بمياه الأمطار ..

لم تعطه ردًا ، وإن ظل عطر (ديور) المميز يملأ أنفه ، فتثاءب بحركة تمثيلية قبل أن يعاود مشاكسته إزجاء للوقت :

ـ .. سأحاول النوم قليلا ، لا تنسوا أن توقظونى عند الوصول ..

مضت دقائق أخرى ، قبل أن تتوقف السيارة بغتة ..

ـ .. رائع ، لقد وصلنا بأسرع مما كنت أتوقع .. إننى لم أنم بعد ، تصوروا !

دوى صوت انفتاح الأبواب وانغلاقها عاليًا فى أذنيه ، متداخلا مع رخات المطر المنهمر فى الخارج ، وشعر بأيد قوية تدفعه للخروج فخرج ، ليبتل رأسه الحليق بالماء المنهمر ، ويتدافع الهواء البارد إلى أعطافه ، ثم إنه سار فى اتجاه دفعات الأيدى القوية طواعية ، دون أن يستشعر فى أعماقه أدنى قدر من الخوف أو التوتر ..

إن أسلوب هؤلاء ينم عن استعراضية تليق بأفلام الحركة ، ويبدو أنهم لا يشاهدون هذه الأفلام حتى نهايتها ، ليعرفوا أى مصير يلقاه الأشرار فى النهاية ..

أدخلته الأيدى الدافعة إلى مكان جاف ، دافئ ، عندها فقط رفع أحد الحراس المتأنقين العصابة عن عينيه ، فحياه (عمر) ببسمة لم يستجب لها ، وخرج تاركًا إياه وحيدًا يتأمل ما حوله ..

غرفة واسعة أرضيتها من الخشب ، وسقفها فى غاية العلو ، خالية إلا من مقعد وحيد فى المنتصف ، ويبدو أن الدفء يتسرب إليها من نظام تدفئة مركزى ..

الستار الشفاف فى آخر الغرفة لا يخفى النافذة الزجاجية الكبيرة خلفه ، وقد أسرع (عمر) برفعه ناظرًا عبر الزجاج إلى الجبال والمروج الخضراء البعيدة ، وفى القريب استطاع تمييز مدخل القصر الكبير الذى اقتيد إليه ، وأمامه عدد من السيارات الرابضة والحرس الخاص ، المرتدين حللا رسمية كاملة ، والشاهرين أسلحتهم متناثرين هنا وهناك ، تحت السماء المطيرة ..

يغدو الهروب من مكان كهذا صعبًا دون أن تصيبك إحدى رصاصاتهم ، هكذا فكر ، وفكر أيضًا أن المكان يليق بزعيم عصابة من طراز (الأب الروحى) ، مما يعزز من نظرية الاستعراض السينمائية ومصير الأشرار فى نهاية الفيلم ، وقبل أن يفكر فى أمر ثالث داعب أنفه عطر (ديور) الدسم مجددًا ، فاستدار ليراها واقفة عند باب الغرفة ، مشهرة مسدسها فى وجهه ، ومن خلفها اثنان من الحرس يسددان مسدسيهما نحوه أيضًا ..

ـ ليس ما أراه عدلاً ..

قالها (عمر) باسمًا ، وهو يرفع يديه المقيدتين بالأغلال المعدنية ..

ـ .. ثلاثة مسدسات فى مواجهة هذه ؟!

تجاهلت الضئيلة عبارته ، وهزت رأسها إلى ناحية ضمنية وهو تقول :

ـ تفضل أمامى ، فهناك من ينتظر مقابلتك ..

هز (عمر) كتفيه ، وتقدم منهم قائلاً :

ـ يبدو أنكم ما زلتم مصرين على إشعارى بالأهمية ..

وتقدم حتى أصبح أمام الرجلين وخلف الفرنسية ، سائرًا فى ممرات القصر الواسعة ، تصافح عيناه التماثيل القوطية المتناثرة هنا وهناك ، والنقوش الداكنة المطلة من السقف ، حتى بلغوا بابًا خشبيًّا كبيرًا مليئًا بالمنحوتات البارزة ، فدفعته الفرنسية القصيرة بيدها لينفتح على الفور ..

ـ تفضل بالدخول ..

قالتها الفرنسية مشيرة بيدها لـ (عمر) الذى فقد مرحه ليحل مكانه الاهتمام الممزوج باللهفة على صفحة وجهه ، وتقدم دون تردد داخلاً عبر الباب الخشبى الكبير المفتوح ..

فى الداخل ، كانت الأحطاب تطقطق ، والنيران تتأجج فى مدفأة تتوسط الغرفة الواسعة ، المفروشة بذوق كلاسيكى واضح ، فالنقوش بارزة فى الأركان ، والمزهريات الصينية الكبيرة تبلغ قواعدها سطح الأرض ، والسجاد الإيرانى

النفيس يكسو مساحات الأرضية الشاسعة ، وهناك على اليمين مكتبة ضخمة تبرز من خلالها كعوب الكتب السميكة؛ المكتوبة عناوينها اللاتينية بماء الذهب ، وفوق المدفأة لوحة ضخمة مرسومة بالزيت لامرأة بيضاء متوسطة الجمال ترتدى ملابس العصور الوسطى ، اقترب منها (عمر) مضيقًا عينيه وهو يحاول أن يتذكر ..

أين رآها من قبل ؟!

ـ إنها صورتى يا عزيزى المصرى ..

الصوت أيضًا ، استدار (عمر) ناحيته على الفور واتسعت عيناه للمفاجأة التى لم تكن فى حسبانه على الإطلاق ..

ـ أنتِ ؟!

هتف بها مذهولاً ، وهو يرى المرأة البيضاء المتوسطة الجمال ، على كرسيها المتحرك ، تبرز من وراء عامود ضخم ، وهى تبتسم فى غبطة صافية ..

المرأة التى رآها كثيرًا ، وتعامل معها فى أكثر من مرة ، والتى يعرفها جيدًا باسم :

ـ .. (مادلين تشايمر)[*] ؟!

(*) راجع الأعداد (١) عملية الشريحة الإلكترونية ، (٥) عملية خط النار ، (٦) عملية الداهية ، و(١٠) عملية إرهاب .

ضحكت (مادلين) ضحكة خافتة ،-وضغطت زرًا فى مسند مقعدها المتحرك ، فأزّت عجلاته الكهربائية وتحركت بها فى اتجاه (عمر) ، قائلة وأسنانها البيضاء تبرز من وراء بسمتها :

ـ لم نلتق منذ زمن طويل ..

ثم إنها فرقعت بإصبعها للفرنسية الواقفة عند الباب فى انتظار الأمر :

ـ .. (صوفى) ، نحن لا نعامل ضيوفنا هكذا ، حرريه من هذه الأغلال فورًا ..

امتثلت (صوفى) الضئيلة لأوامر رئيستها على الفور ، ودنت من (عمر) فى آلية واضعة مفتاحًا صغيرًا فى ثقب الأغلال لتصدر تكة ، ثم إنها حملت الأغلال وخرجت مغلقة الباب على الفور ، لا تتابعها عينا (عمر) الذى ظل يحدق فى (مادلين) وعقله يحاول أن يفهم ما يجرى ..

ـ .. أقرأ وقع المفاجأة فى عينيك ، لكنى أتعشم أن تكون مفاجأة سارة ..

قالتها (مادلين) وهى تنظر فى عينى (عمر) مباشرة

بعينيها الملونتين ، بينما أخذ (عمر) يحرك يديه فى حرية ليعيد إلى كفيه مجرى الدماء ، متظاهرًا بأن الأمر لم يفاجئه إلى هذه الدرجة :

ـ توقعت فقط أن تكونى شخصًا آخر ..

اتسعت بسمتها وهى تسأله فى خبث :

ـ مثل رجل الليل مثلاً ؟!

قال فى إعجاب :

ـ مازلت قادرة على إدهاشى فى كل مرة نلتقى فيها ..

قالت فى غموض :

ـ هذه المرة ستختلف كثيرًا ، أستطيع أن أعدك بهذا ..

قال وهو يهز رأسه ويبادلها نظرة العين بنظرة عين :

ـ أنت إذن رجل الليل الغامض الذى ترك لى رسالة فى غرفتى وقتل حارسىّ الشخصيين ..

غمزته بعينها قائلة :

ـ دعنا لا نبدأ لعبة الذكاء من الآن ، رغم رغبتى الملحة فى تسجيل إعجابى بلعبة ابن (روى باور) التى بدأتم فى لعبها بالكاد ..

عقد (عمر) ساعديه أمام صدره ، وقال فى حسم :

ـ حسن ، لقد أتيت بى إلى هنا فى هذا الموكب الاستعراضى لأنك تريدين منى شيئًا ، وأحب أن أعرف ماهية هذا الشىء لأن ذكائى لم يرق بعد لاستنتاجه ..

قالت فى بطء ، كأنها تتلذذ بكل حرف تنطق به :

ـ كما أخبرتك فى رسالتى الأخيرة ، لقد سددت لك دين إنقاذك لحياتى مضاعفًا ، بقى أن أسترد دينى الذى فى عنقك تجاهى ..

ابتسم فى استفزاز قائلاً :

ـ تعنين هزيمتى لك فى (باريس) فى أولى مهماتى المنفردة مع الإدارة ؟!

لم يستفزها قوله كما توقع ، وإنما حافظت على بسمتها وهى تقول :

ـ وفى (لندن) أيضًا لو كنت لا تزال تذكر ..

ثم إن عجلات كرسيها أزت وهى تتراجع بها ، سائلة إياه فى بساطة :

ـ .. هل تحب أن تشرب شيئًا ؟!

تابعها (عمر) وهى تتجه بكرسيها إلى منضدة قريبة تنتصب فوقها زجاجات وأكواب وعلب شراب ، ثم إنها مدت يدها إلى زجاجة ماركة العلامة الحمراء وشرعت فى صب السائل الدموى منها إلى كأس من الكريستال النقى ..

ـ لا شىء ..

قالت مشيرة إلى أصناف الزجاجات والعلب فوق المنضدة :

ـ لدى ما يناسبك لو كنت لا تفضل المشروبات الكحولية ..

غير (عمر) الموضوع على الفور :

ـ كنت أتساءل ـ لو كان لى أن أتساءل ـ عن الكيفية التى عثرتِ بها علىّ هنا فى (مدريد) ..

تناولت (مادلين) زيتونة فى نهاية عود خشبى صغير ، وقربتها من شفتيها قائلة فى نشوة :

ـ فى كل مرة نلتقى فيها تسألنى هذا السؤال ، وتنسى أننى أمتلك مجموعة شركات دولية متخصصة فى تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات ..

لاكت أسنانها الزيتونة و(عمر) يسألها مقطبًا :

ـ معنى هذا أنك تتابعيننى منذ فترة إذن ..

ـ طلبت منك ألا نبدأ ألعاب الذكاء مبكرًا ، ودعنا فى دينى الذى فى عنقك ..

سألها فى نبرة استخفاف :

ـ وكيف تنوين استرداده ؟! بقتلى ؟!

رشفت من كأسها وضحكت ، قبل أن تقول :

ـ لا تكن ساذجًا ، كان بإمكان (صوفى) أن تقضى عليك بضغطة زناد فى غرفتك بالفندق لو كان هذا ما أريده ..

ـ ما الذى تريدينه إذن ؟!

تساءل (عمر) فى صبر ينفد ، فحملت (مادلين) نسخة من جريدة إسبانية مطوية فوق المنضدة المجاورة لها ، وهى تقول :

ـ أن تقوم بمهمة فريدة من نوعها ..

وفردت الجريدة على الصفحة الأولى مواصلة :

ـ .. إنك تقرأ الصحف بالتأكيد ، وبالتأكيد تعرف هذا الرجل ..

كانت تشير إلى صورة منشورة بالألوان فى صدر الصفحة الأولى ، اقترب (عمر) منها متفرسًا فيها وعلامات الاستفهام تتناسخ فى خلايا مخه ..

كانت صورة لرجل منتفخ الأوداج ، أسود الشعر فاحمه وغزيره ، شفتاه مكتنزتان ، أنفه كبير ، وملابسه الرسمية أنيقة جدًا ..

قال (عمر) وهو يحاول استكناه ما استغلق عليه عقل هذه المرأة :

ـ إنه (جيمس بامفورد) ، المستشار القانونى للرئيس الأمريكى ، قد أتى إلى (مدريد) فى زيارة رسمية صباح اليوم ..

طوت (مادلين) الجريدة قائلة دون أن تبدو آثار التهكم فى لهجتها :

ـ ممتاز ، إنك تحفظ دروسك جيدًا ..

ثم استطردت معيدة الجريدة إلى مكانها فوق المنضدة :

ـ .. الليلة ، فى تمام التاسعة مساء ، سيقام حفل فى السفارة الأمريكية هنا فى (مدريد) ، على شرف السيد المستشار (بامفورد) ، والمطلوب منك باختصار أن تكون أحد حضور هذا الحفل ..

عقد (عمر) حاجبيه وهو يسألها :

ـ فقط ؟!

ـ كلا بالطبع ..

وتناولت مسدسًا من فوق المنضدة ، ثم مدت به يدها إلى (عمر) قائلة وعيناها تبرقان :

ـ .. مطلوب منك أيضًا أن تقتل السيد (بامفورد) ، برصاصة فى منتصف الجبهة تمامًا ..

وهزم الرعد المدوى فى الخارج ..

بكل قوة ..

* * *

أطلقت سيارة الإسعاف نفيرها القوى المتواصل فى شارع من شوارع حى (المقطم) الهادئ ، بعد منتصف الظهيرة بقليل حيث تستطيل ظلال المبانى والأشجار ، فانفتح مرآب الفيلا التى تقف أمامها إلى أعلى ، وأدخلها سائقها فى بطء ليبتلعها جوف المرآب ، ثم انغلقت بوابته الحديدية وراءها إلى أسفل على الفور ..

فى داخل المرآب كانت هناك سيارتا إسعاف متماثلتان ، وفى داخل الفيلا دلف الأشقر الرشيق إلى إحدى الغرف ، سائلا الشاب الكالح البياض ذا النظارة والسمت الوقور الذى يليق بالأكاديميين :

ـ هل أوصلك استجوابه إلى شىء ؟!

حمل الشاب المسجل الصغير من فوق المنضدة أمامه ، وأخرج شريط التسجيل من داخله قائلاً فى ثقة ، وبإنجليزية ذات لكنة روسية واضحة :

ـ كل إجاباته فى هذا الشريط يا سيد (بولانسكى) ..

خطف (بولانسكى) الشريط من بين يديه ، قائلاً فى عبوس :

ـ هاته ، وأخبرنى بما عرفته منه لأننى أجهل اللغة اللعينة التى يتحدث بها ..

هز الأكاديمى كتفيه قائلاً :

ـ هذا مفهوم بالطبع ، لذا تستعين بخبير فى لغات (أوروبا الشرقية) مثلى ..

زجره (بولانسكى) قائلاً :

ـ لا تثرثر كثيرًا وأخبرنى بما أريد سماعه ..

عاد الأكاديمى يهز كتفيه فى لا مبالاة ، وأشار إلى ورقة فوق المنضدة قائلا :

ـ لقد وجهت إليه جميع الأسئلة المكتوبة فى القائمة التى أعطيتها لى ، والخلاصة أن سبب تواجده فى (مصر)

هو مرافقة السيد (روى باور) ، المحتجز فى إدارة خاصة تدعى (المكتب ١٧) ، والذى يعانىَ حاليًا من حالة فقدان ذاكرة لم يشف منها بعد !

اتسعت عينا (بولانسكى) رعبًا وهو يهتف :

ـ ماذا ؟! محتجز هاهنا ؟! وفاقد للذاكرة ؟! من الذى عاد إلى القصر إذن وطردنا من خدمته ؟!

لوح الأكاديمى بالورقة وقال :

ـ هذا السؤال لم يكن مدونًا فى القائمة ، لذا لم أوجهه له .. هل تحب أن أفعل ؟!

نظر (بولانسكى) إلى الدكتور (رومانو ماركوس) الجالس عند طرف المنضدة ، وقد استحال وجهه إلى لوحة من الكدمات والسجحات والجروح ، بعضها صنعه (بولانسكى) بنفسه ، والباقى تولى أمره الرجال المرافقون له ..

ـ فى الغالب لن يعرف الإجابة ، اتركه الآن حتى أعود لك ..

قالها (بولانسكى) ثم أعطى ظهره للأكاديمى منطلقًا إلى البهو الخارجى ، حيث يجلس بضعة رجال منهم رجلان فى زى التمريض ، قال أحدهما :

ـ لقد وصلت الفتاة يا سيد (بولانسكى) ..

ابتسم (بولانسكى) فى ظفر ، ثم هتف :

ـ رائع يا رجال ، وماذا عن عملية (مدريد) ؟!

قال رجل جالس خلف حاسوب نقال مفتوح ، وهو يهز رأسه ويمط شفتيه امتعاضًا :

ـ أخشى أنهم لم يحققوا نفس نجاحاتنا هاهنا ، لقد أرسل لى الرجال هناك عبر البريد الإلكترونى بأن (شنكو) قد لقى مصرعه فى جناح فندق (كارلتون) ، والغريب أنه قد قتل الحارسين الشخصيين الجديدين لـ (روى باور) كما يفترض به أن يفعل ، كما أن (باور) نفسه قد اختفى من غرفته فى الفندق دون أثر ، والشرطة الآن تباشر التحقيق فى الأمر .. يبدو أن طرفًا ثالثًا قد دخل اللعبة ، طرف نجهله كما هو واضح ..

ضغط (بولانسكى) على أسنانه ، وقد تحولت بسمته إلى تعبير مريع إذ هتف :

ـ اللعنة ، لماذا لا يكتمل النجاح أبدًا ؟! ماذا أقول للرجل الذى وضع ثقته فينا ؟!

سأله أحد الجالسين ينظف ماسورة مدفع رشاش :

ـ من هذا الرجل يا (بولانسكى) الذى يعهد إلينا بالعمل معًا بعد أن طردنا (روى باور) من خدمته ؟!

أجابه (بولانسكى) مستاء :

ـ لا أعلم ، مجرد رجل يتصل بى بالهاتف ويحول لى النقود على حساب بنكى ، وهو يدفع بسخاء لنا جميعًا كما ترون ..

قال آخر فى تذاك :

ـ ربما كان أحد أعداء (روى باور) يريد الاستفادة منا كحرس شخصى سابق له ..

صاح (بولانسكى) فى حنق :

ـ ليكن الشيطان نفسه ، لا يهم .. المهم الآن أننا فى وضع نصف نجاح ونصف إخفاق ..

قبل أن ينهى عبارته رن الهاتف فى جيبه ، فرفعه ونظر فى شاشته ، قبل أن ينتحى بركن من البهو ويتحدث همسًا ، ورجاله يحاولون استراق السمع دون جدوى :

ـ .. مرحبًا يا سنيور .. كل شىء على ما يرام هنا .. الدكتور (رومانو) أخبرنا بكل ما نريد معرفته .. والفتاة فى حوزتنا ..

النقود لدينا لكن الرجل تأخر عن موعد تسلمها .. سأفعل يا سنيور .. ماذا عن الفتاة ؟! أهى أيضًا ... ؟! حسن ، سننفذ الخطة بحذافيرها ، لا تقلق .. وبالنسبة للرجال فى (مدريد) ... حسن يا سنيور .. إلى اللقاء ..

أغلق الهاتف المحمول على الفور ، وقد اكتسى وجهه بقناع صارم من الجدية ، وهو يخاطب الرجال الشاخصين نحوه فى اهتمام :

ـ استعدوا للمغادرة أيها المرتزقة ، وجهزوا الفتاة كما اتفقنا ..

أشار أحدهم للغرفة الداخلية سائلاً :

ـ ماذا عن الدكتور (رومانو) ؟!

ـ اتركوه لى ..

واستدار معطيًا ظهره لهم ، داخلاً إلى الغرفة من جديد ، حيث يجلس الأكاديمى فى مواجهة الدكتور (رومانو) الذى شبع ضربًا واستجوابًا ..

ـ هل من جديد يا سيد (بولانسكى) ؟!

سأله الأكاديمى ، فأجابه فى لهجة جافة :

ـ اخرج وأغلق الباب خلفك ..

امتثل الأكاديمى على الفور ، واقترب (بولانسكى) من الدكتور (رومانو) الذى اتسعت عيناه رعبًا ، وقد توقع مزيدًا من الضرب والتنكيل ..

لكن (بولانسكى) ابتسم وهو يخرج مسدسًا من جيب معطفه ، ويصوبه إلى رأس الدكتور (رومانو) مباشرة :

ـ اعذرنى يا عزيزى ، لكنى أنفذ الأوامر فقط ..

لهث الدكتور (رومانو) عندما التصقت فوهة المسدس بجبهته ، وكاد يصيح مستعطفًا ، لكن ، فى اللحظة التالية ، سمع كل من الخارج دوى الرصاصة داخل الغرفة ..

* * *

٤ـ رصاصة فى منتصف الجبهة ..

قال (نادر) فاردًا سبابته ووسطاه وبنصره إلى أعلى :

ـ المحصلة ثلاث حوادث اختفاء غامضة ..

ثم إنه أخذ يثنيها تباعًا أمام عينى العميد (حرب) الحادثين :

ـ .. (دينا) تم تسهيل خروجها إلى مكان نجهله بواسطة الدكتور (نبيه) ، والدكتور (نبيه) نفسه مازلنا نبحث عنه فى كل مكان يمكن أن يتواجد فيه دون جدوى ، وهاتفه المحمول مازال مغلقًا ، وأخيرًا الدكتور (رومانو) الذى اختطف من منزله بطريقة مريبة ، ألا تعتقد يا سيادة العميد أن هناك خيطًا ما يربط بين هذه الحوادث المتفرقة ؟!

زفر العميد (حرب) فى حرارة ، قبل أن يغمغم :

ـ بالتأكيد يوجد رابط ما ، لكن تنقصنا المعلومات بشدة ..

رن هاتف العميد (حرب) المحمول ، فأشار لـ (نادر) بمغادرة الغرفة ، ونفذ (نادر) الأمر على الفور متفهمًا سرية المكالمة ، بالإضافة إلى أن هاتفه المحمول قد بدأ هو الآخر فى الرنين ..

سأل العميد (حرب) فور تلقيه المكالمة :

ـ هل وردت أنباء أخرى من (عمر) فى (مدريد) ؟!

أجاب موظف الاتصالات وتلقى التقارير على الجانب الآخر :

ـ كلا يا سيدى ، المشكلة أن هذا لم يحدث !

استشعر العميد (حرب) الخطر بحاسته السادسة :

ـ ماذا تعنى ؟!

ـ لقد اختفى النقيب (عمر زهران) من غرفته فى الفندق دون أثر ..

صاح العميد (حرب) :

ـ ماذا تقول ؟!

شرح له الشاب على الطرف الآخر ـ فى اقتضاب ـ ما حدث ، كيف أن الشرطة وجدت ثلاث جثث لقتلى فى جناحه إثر بلاغ من إدارة الفندق ، منهم جثتا حارسيه الشخصيين وثالثة مجهولة ، وأن (عمر) اختفى تمامًا بعد اجتماع الصباح فى مقر الشركة ، وأن الوضع عمومًا مازال الغموض يكتنفه ..

انتهت المكالمة ليعقد العميد (حرب) حاجبيه مغمغمًا وهو يحدث نفسه :

ـ ما الذى يحدث بالضبط ؟!

ونهض ليغادر مكتبه ، ففوجئ بـ (نادر) يفتح الباب من الخارج فى اللحظة نفسها قائلاً :

ـ هناك أنباء جديدة يا سيادة العميد ..

سأله العميد (حرب) فى وجوم :

ـ بشأن ماذا ؟!

ـ بلاغات متفرقة من (المقطم) ، ربما تفيد بوجود من نبحث عنهم هناك ..

قالها (نادر) فى حماس ، قبل أن يتناهى إليهما الصوت الواهن من جهة اليسار :

ـ لو أسرعتما فلربما أمكنكما اللحاق بهم ..

التفتا معًا إلى مصدر الصوت ، وهتف (نادر) بصوته الجهورى الفاضح :

ـ الدكتور (نبيه) ؟!

البؤس محفور على وجهه ، والكآبة تحلق فوق هيئته المزرية ، وصوته يشى بمدى ما يعانيه ، غير أن هذا كله لم يمنع العميد (حرب) من استلال مسدسه من بين ملابسه ، وتوجيهه إلى رأسه مباشرة !

ـ إلى الداخل ..

قالها العميد (حرب) فى صرامة تقشعر لها الأبدان ، فرفع الدكتور (نبيه) ذراعيه إلى أعلى دون أن تهتز فى وجهه خلجة ، أما (نادر) فقد كادت عيناه تقفزان من محجريهما ذهولاً ..

أغلق العميد (حرب) الباب قبل أن يدخل (نادر) ، وعاد يصوب مسدسه إلى رأس (نبيه) ، صائحًا بكل ما فى الدنيا من ثورة :

ـ ماذا فعلت يا رجل ؟! هل فقدت عقلك فجأة ؟!

جلس الدكتور (نبيه) فى هدوء على أحد المقعدين المقابلين لمكتب العميد (حرب) ، شاخصًا بعينيه فى المجهول ، وهو يغمغم فى وصلة صراحة مع الذات :

ـ كان من المفترض أن أذهب إلى (المقطم) كى أتقاضى ثمن التصريح الذى وقعته بخروج (دينا واصف) ، مبلغ محترم

بالعملة الصعبة لم أكن أحلم بتقاضى نصفه هنا فى إدارة المهام الخاصة ، حتى لو عملت لمدة ثلاثة قرون متواصلة ، غير أننى فى اللحظة الأخيرة تراجعت ، ووجدت قدماى تعود بى إلى هنا من جديد ..

سأله العميد (حرب) بأنفاس متلاحقة :

ـ لماذا ؟! هل استيقظ ضميرك فجأة ؟!

ظلت عينا الدكتور (نبيه) شاخصتين إلى المجهول ، وهو يتحدث بنبرة خفيضة متهكمة :

ـ ضمير ؟! وهل تعتقد أن رجالاً مثلى أو مثلك يملكون ضميرًا يا عزيزى (منصور) ؟! أم أنك تتجاهل ما فعلناه وما زلنا نفعله منذ أكثر من ثلاثين عامًا ؟!

صاح به (منصور حرب) فى غيظ :

ـ اخرس ، ولا تخلط الأوراق ببعضها ..

قال الدكتور (نبيه) وعيناه المحدقتان فى الفراغ تتسعان من هول التأملات :

ـ لقد مات ضميرى يوم قبلت أن أشترك معكم فى اللعبة المستمرة حتى يومنا هذا ، والغريب أننى اليوم فقط أحاسب

نفسى وأجلدها ، وأنا فى طريقى للحصول على المال ، رغم أن عينى هاتين تشهدان آثار الذى فعلته كل يوم هنا فى الإدارة ، مع أمثال هذا الشاب الذى كان واقفًا معنا فى الخارج قبل لحظات ، إنه واحد منهم .. أليس كذلك ؟!

ـ قلت لك اخرس ، هل (دينا) الآن فى (المقطم) ؟!

صاح بها (منصور حرب) دون أن يهبط المسدس من يده ، فأجابه (نبيه) وقد بدأ ينفعل بدوره :

ـ أجل ، أخذوها إلى هناك ، وكان من المفترض أن أذهب لأقبض الثمن ، وبالمناسبة إنهم يعرفون عنا كل شىء ..

لهث العميد (حرب) وهو يسأله فى عصبية بالغة :

ـ من هم ؟! وماذا يعرفون ؟!

رفع (نبيه) عينيه الكسيرتين إليه أخيرًا ، وهو يجيب بنبرة أقرب للبكاء :

ـ يعلمون ما نفعله منذ زمن يا (منصور) ، رجل الليل يعرف كل شىء !

لهث العميد (حرب) أكثر وهو يسأله بعصبية أبلغ :

ـ من رجل الليل هذا ؟!

دمعت عينا الدكتور (نبيه) وهو يقول فى ألم :

ـ الرجل الذى ذكرنى بما لن أسامح نفسى على فعله أبدًا مرة أخرى ، لن أسامح نفسى أبدًا على الجريمة البشعة التى اشتركت فيها معكم يا (منصور) ..

جذب العميد (حرب) إبرة مسدسه قائلاً وقد فقد السيطرة على أعصابه تمامًا :

ـ اخرس وإلا قتلتك !

بمنتهى السرعة قفز الدكتور (نبيه) من فوق مقعده ..

ـ ولماذا تلوث يدك ؟!

بمنتهى السرعة جذب الدكتور (نبيه) المسدس من يد العميد (منصور حرب) ..

ـ .. دعنى أقوم بهذه المهمة عنك ، يا صديقى ..

بمنتهى الانفعال صاح بها الدكتور (نبيه) ، وبمنتهى السرعة أمسك بالمسدس ، وبمنتهى الجنون وجهه إلى منتصف جبهته ، وبمنتهى الحسم ضغط الزناد ..

وبمنتهى العنف انفجرت جمجمته وهو يطير إلى الخلف ، ليصطدم بالحائط ، ثم سقط جثة هامدة على أرض المكتب ..

تجمد العميد (حرب) وهو يرمق المشهد الرهيب مشلول اللسان والذراعين ، ومن خلفه انفتح الباب ليقتحم (نادر) المكتب ، بعد أن سمع دوى الرصاصة ، وكان الأمر أوضح من أن يسأل عنه ، وأعقد من أن يفهمه بمفرده !

* * *

ضحك (عمر زهران) حتى ظهرت نواجذه ، فى مواجهته لـ (مادلين تشايمر) المادة يدها بالمسدس إليه ، قبل أن يقول فى سخرية :

ـ يا لها من نكتة ، لم أكن أعرف أن الفرنسيين يتمتعون بهذا الحس الفكاهى اللاذع من قبل ..

لم يتلاش بريق عينيها ، المتناغم مع برق السماء الممطرة فى الخارج عبر النوافذ الزجاجية المغطاة بستائر شفافة ، ولم تتلاش بسمتها الماكرة ، وهى تقول :

ـ تظننى أمزح ، أليس كذلك ؟!

هز كتفيه وهو يقول فى استهانة :

ـ إن كنت لا تمزحين فقد فقدت عقلك لا محالة ..

هزت كتفيها هى الأخرى قائلة ، وهى لا تزال تحمل المسدس فى يدها :

ـ هناك احتمال ثالث ، أن أكون واثقة من نفسى أكثر من اللازم ..

ـ الثقة فى النفس أكثر من اللازم ليست إلا جنونًا ، لكنى أعلم أنك أعقل من هذا ، ولابد أن لطلبك هذا مبررًا قويًّا ..

ثم إن (عمر) فكر بصوت مسموع مستطردًا :

ـ .. دعينى أفكر بطريقتك ، إن قتلى لمستشار الرئيس الأمريكى نفسه انتقام مثالى ومبتكر من جهتك ، فإما أن يلقى القبض علىّ وأرى صنوف العذاب على أيدى الأمريكيين تبعًا لقوانينهم الصارمة الجديدة فى مكافحة الإرهاب ، وإما أن أقضى عمرى مطاردًا من جهتهم ، وهو عذاب أشد وأنكى ، السؤال هو : ما الذى يدفعنى لقبول عرض سخى كهذا ؟! لابد أن لديك ورقة ضغط تدفعنى لقبول المهمة ، أو على الأقل وسيلة إغراء ..

برقت عيناها أكثر مع هزيم الرعد مجددًا فى الخارج ، وامتزج صوتها برشاشات المطر وسعار النار فى التهام أخشاب المدفأة :

ـ كل شىء بثمنه ..

سألها مستعيدًا حسه الساخر :

ـ وكم ستدفعين لى فى عملية كهذه ؟!

أجابته وعيناها تبرقان أكثر وأكثر :

ـ معلومات تهمك ، أثمن من النقود ..

بدأ الأمر يثير اهتمامه :

ـ معلومات ؟! بشأن ماذا ؟!

وبدأت هى تقود زمام اللعبة :

ـ بشأنك أنت ..

بدأ الأمر يثير اهتمامه أكثر :

ـ وهل تعرفين عنى أكثر مما أعرفه أنا عن نفسى ؟!

وبدأت هى تقود زمام اللعبة بإحكام :

ـ تعبير دقيق جدًا ، والإجابة : نعم !

ران صمت ، أخذ (عمر) خلاله يحدق فى المسدس الذى مازالت يدها ممدودة به ، وعقله يحاول تقييم الموقف تقييمًا موضوعيًا ، فقال فى النهاية :

ـ عن أى نوع من المعلومات تتحدثين ؟!

قالت كأنها تعرض سلعة على مشتر متردد :

ـ معلومات عن حياتك .. ماضيك .. أبوك الذى مات وأنت طفل صغير .. أمك التى تولت مهمة تنشأتك .. أستاذك الصقر العجوز الذى يتحدث كل من إدارة المهام الخاصة عن العلاقة الغريبة التى تربطك به .. ظواهر غير مفهومة فى حياتك تحتاج إلى تفسير .. وأكثر ..

إنها تعرف الكثير بالفعل ، هكذا فكر (عمر) ..

ـ .. إليك الاتفاق النهائى يا عزيزى المصرى ، إذا أردت أن تعرف خذ المسدس الآن ، وسوف يوصلك رجالى إلى مقر شركتك فى برج (بيكاسو) ؛ لأن الشرطة قد توصلت لما حدث فى غرفة الفندق وعثرت على جثث القتلى بالفعل ، وستعطيك (صوفى) عنوانًا تعود إلىّ فيه بعد تنفيذ مهمتك لتحصل على المعلومات التى تهمك ، وإذا رفضت المهمة ، فيمكنك الخروج الآن على الفور وسيتولى رجالى توصيلك إلى الشركة أيضًا ، وتأكد أننا لن نتقابل مرة أخرى على الإطلاق ، حتى ولو بالصدفة ..

الاختيار الصعب ..

إنها تلعب على أدق الأوتار فى أعماق الإنسان ، حب

المعرفة الذى أخرج (آدم) علية السلام من الجنة ، والذى جعل (أوديب) يفقأ عينيه عندما علم بأنه قد تزوج أمه زواجًا محرمًا ، والذى ألقى بـ (عباس بن فرناس) من قمة الجبل عندما ذابت أجنحته الشمعية مع حلم الطيران ، هكذا فكر (عمر) قبل أن يمد يده أخيرًا ..

ويتناول المسدس ..

ـ هناك فكرة ما تراودنى ..

قالها (عمر) وهو يتأمل فوهة المسدس بين يديه ، ثم إنه وجهه مباشرة إلى رأسها ..

رأس (مادلين تشايمر) التى مازالت تبتسم !

ـ .. ألا يمكننى أن أعرف ما أريد معرفته منك الآن ؟!

ضحكت (مادلين تشايمر) هذه المرة حتى ظهرت نواجذها ، وتألقت عيناها كألف شمس إذ قالت :

ـ لا تكن ساذجًا ، لو مت سيموت السر الخفى معى إلى الأبد ..

ثم إنها أشارت إلى جبهتها مردفة بلهجة مرحة رهيبة :

ـ .. ولا تنس ، يجب أن يلقى (جيمس بامفورد) حتفه برصاصة فى منتصف الجبهة ..

رعد ..

ثم برق ..

وأمطار غزيرة ..

وضحكة نسائية شيطانية عالية ..

* * *

الشمس تغرب من نافذة فيلا (المقطم) الغارقة فى الفوضى والمعبقة برائحة الدم ، زجاجات البيرة متناثرة والمقاعد مقلوبة ، ومن الغرفة فى نهاية البهو يقومون بإخراج جثة هامدة على محفة ، وبجوار النافذة يحدق العميد (منصور حرب) فى ورقة بين يديه بعينين تضيقان :

ـ رجل الليل مرة أخرى ؟!

كلمات قليلة فى الورقة :

نلتقى فى (مدريد) ، سيكون الاحتفال رائعًا عندما يلتم الشمل

الإمضاء : رجل الليل

اقترب منه (نادر الشريف) قائلاً كأنه يلقى بقطعة محفوظات فى طابور الصباح المدرسى :

ـ وجدنا الدكتور (روماتو ماركوس) مقتولا برصاصة فى منتصف الجبهة يا سيادة العميد داخل تلك الغرفة ، ونقوم الآن بنقل جثته ، كما نقوم برفع البصمات وتحرير الأدلة ومن جميع أنحاء الفيلا ، وجدنا أيضًا سيارتى إسعاف مزيفتين بأرقام معدنية مزورة فى المرآب ، أما عقد إيجار الفيلا فهو موقّع منذ ثلاثة أشهر من قِبَل الدكتور (نبيه) نفسه .. يبدو أن كل شىء كان مُعَدًا سلفًا من فترة طويلة يا سيدى ..

غمغم العميد (حرب) دون أن ينظر نحوه :

ـ صدقت يا (نادر) ، يبدو أن كل شىء كان معدًا من فترة طويلة للغاية ..

قال (نادر) وهو يهرش فى رأسه :

ـ الآن زال الغموض عن حادثى اختفاء من ثلاثة بموت المختفيين برصاصة فى الرأس ، أتعشم ألا تكون نهاية (دينا) مماثلة حتى لا يصاب (عمر زهران) بانهيار عصبى !

سأله العميد (حرب) دون أن ينظر نحوه :

ـ أما من أثر لها حتى الآن ؟!

ـ نحن لا ندخر جهدًا فى البحث عنها يا سيدى .. أعتقد أننا إذا عثرنا على من كانوا هنا فسنجدها بالتأكيد .. لقد أبلغ الجيران عنهم عند سماع صفارات الإسعاف المريبة وبعد سماعة طلقة الرصاص ، لكنهم كانوا أسرع منا فى الهرب ، ولا نعرف حتى الآن الوسيلة التى يستخدمونها فى التنقل ، لكننا مازلنا نحاول جمع أكبر قدر من المعلومات بمعاونة الشرطة ..

قاطعه رنين هاتف العميد (حرب) المحمول ، فابتعد قبل أن يطلب هو منه هذا ، وبنظرة خاطفة إلى الشاشة ضغط العميد (حرب) زر قبول المكالمة على الفور :

ـ (عمر) .. أهذا أنت ؟!

أتاه صوت (عمر) ، الذى كان يجلس منفردًا فى غرفة رئيس مجلس إدارة UFG ltd. ، ويتحدث من هاتف محمول موصل بالقمر الصناعى عبر قناة مؤمنة ضد التجسس :

ـ أجل يا سيادة العميد ، هذا أنا .. (عمر زهران) !

هتف العميد (حرب) فى لهفة :

ـ ما الذى حدث يا فتى ؟!

حدق (عمر) فى البطاقة التى أعطتها لها (صوفى) قبل أن تنزله أمام مقر الشركة بعد أن فكت العصابة عن عينيه ، ثم نقل بصره إلى المسدس الذى منحته له (مادلين تشايمر) ، مستقرًا الآن على سطح المكتب ، قبل أن يجيب فى برود ثلجى :

ـ لا شىء يا سيادة العميد ، لم يحدث شىء !

صاح فيه العميد (حرب) وهو يحاول السيطرة على انفعالاته :

ـ كيف لم يحدث شىء ؟! ما الذى حدث فى الفندق ؟! وأين اختفيت كل هذه المدة بعدها ؟!

نظر (عمر) عبر زجاج النافذة إلى السماء التى توقفت مؤقتًا عن الإمطار ، كأنها تستريح لتبدأ وصلة أخرى قريبًا ، وأجاب ببرود أكثر ثلجية :

ـ سأروى لك كل شىء فيما بعد ، فأمامى مهمة عاجلة فى السفارة الأمريكية هنا فى (مدريد) بعد عدة ساعات فقط ..

قطب العميد (حرب) وهو يسأل فى استنكار بالغ :

ـ مهمة فى السفارة الأمريكية ؟! أى نوع من المهمات تقصد ؟!

ابتسم (عمر) فى مرارة رغمًا عنه ، وعاود النظر إلى المسدس والبطاقة المتجاورين على سطح المكتب :

ـ مهمة فريدة من نوعها ، من النوع الشخصى .. لا تشغل بالك بهذه الصغائر يا سيدى ، فلم أتصل بك على رقمك الخاص الآن إلا لكى أسألك سؤالا واحدًا ..

خفق قلب الصقر العجوز ، وهو يقول لتلميذه مبهوتًا عبر الأثير :

ـ (عمر) .. لماذا أشعر أن لهجتك تغيرت فى الحديث معى ؟! هل جد جديد أم أننى واهم بعد يوم من الأحداث العصيبة ؟!

تجاهل (عمر) الإجابة عن سؤال أستاذه ، وألقى بسؤاله الخاص الذى لم يتصل إلا ليلقيه :

ـ هل كنت تخفى عنى شيئًا طوال السنين الماضية يا سيادة العميد ؟! هل هناك شىء لا أعرفه وتريد أن تخبرنى به الآن ؟!

ـ شىء ؟!

تمتم بها العميد (حـرب) ، ثـم إنـه تـابع فـى لهجـة مـن يمشى فى حقل ألغام :

ـ .. شىء مثل ماذا ؟!

ـ أنت أدرى ، لو أن هناك شيئًا كهذا أحب أن أعرفه الآن قبل أن يفوت الوقت .. إنها الفرصة الأخيرة يا سيادة العميد ..

ـ (عمر) .. عد إلى (القاهرة) الآن .. يجب أن نتقابل على الفور ..

قال (عمر) فى حسم :

ـ ليس قبل أن أنهى مهمتى ، وأعرف كل شـىء .. إلى اللقاء الآن يا سيدى ..

أغلق (عمر) الخط من جهته ، تاركًا العميد (حـرب) ينظر فى الورقة بين يديه مشدوهًا ، لا يرى منها إلا الكلمـات : نلتقى فى (مدريد) ، ولا تدوى فى رأسه إلا عبارات الدكتور (نبيه) قبل أن يفعلها وينتحر ..

وعنـد الطرف الآخـر ، تعالت طرقات على بـاب غرفـة (عمر) ، فهتف :

ـ ادخل ..

انفتح الباب ، وفوجئ السيد (إنريك) بـ (عمر) يصوِّب المسدس نحوه من وراء المكتب ، وعلـى شفتيه بسمة سخرية ممزوجة بالألم ، فأطلق الرجل شهقة ذعر ورفع يديه هاتفًا :

ـ سنيور (ماثيو) ، ماذا تفعل ؟!

قال (عمر) دون أن يخفض المسدس :

ـ إنها الشرطة تتصل مجددًا ، أليس كذلك ؟! ألـم أخبرك بأن تنفى وجودى هنا تمامًا ؟!

لوَّح السيد (إنريك) بمظروف فى يده :

ـ كلا يا سيدى ، إنها ليست الشـرطة هذه المرة ، لكنـه مظروف ورد إلينا باسمك قبل قليل ..

عقد (عمر) حاجبيه :

ـ مظروف ؟!

خفض المسدس وأشار لـ (إنريك) بـالاقتراب ، فـاقترب الأخير وناوله إياه ..

نظر (عمر) مليًّا إلى المكتوب على المظروف ، عنـوان الشركة واسمه المستعار (ماثيو ريموند باور) ، ثـم فضـه بسـرعة ليرى محتوياتـه : بطاقـة دعوة أنيقــة إلـى حفـل السفارة الأمريكية ، ووريقـة مـدون عليهـا : مـع تحيـاتى ، والإمضاء : رجل الليل ..

ـ .. رجل الليل مرة أخرى ؟!

غمغم بها (عمر) ، واستأذن (إنريك) :

ـ أتركك يا سيدى لتباشر أعمالك ..

ـ انتظر يا (إنريك) ، خذ هذا وأعطه لأطفالك يلعبون به ..

نظر (إنريك) إلى يد (عمر) الممدودة نحوه بالمسدس نظرة مستفهمة ، فسارع الأخير بالإجابة عليها :

ـ .. لا تخش شيئًا يا رجل ، إنه لا يحتوى على أية رصاصات ..

تضاعف الاستفهام فى عينى (إنريك) ، فهز (عمر) رأسه وهو يتابع :

ـ .. صدقنى ، هكذا أعطتنى إياه المرأة المقعدة !

* * *

٥ـ اغتيال مستشار أمريكى ..

ميناء القاهرة الجوى والليل فى تباشيره الأولى ..

انعكست أضواء النيون فى صالة المغادرة على الواجهات الزجاجية ، وانزلقت الأبواب أوتوماتيكيًا ، ليعبر من خلالها ركب محيط بسرير معدنى يسير على عجلات ، يرقد فوقه جسد مغطى من قمة الرأس إلى أخمص القدمين بالملاءات البيضاء ..

فى صالة الجوازات دلف ضابط شاب إلى زميله الأكبر سنًا ، حاملاً كومة من الجوازات الملونة :

ـ أريدك أن تختم كل جوازات السفر هذه بختم المغادرة على وجه السرعة ..

رفع الضابط الأكبر سنًا أحد حاجبيه سائلاً فى ريبة :

ـ كل هذه الجوازات مرة واحدة ؟!

قال الضابط الشاب فى تعاطف :

ـ إنها حالة إنسانية لا تحتمل التأجيل ..

ثم إنه أشار إلى نقطة قريبة ، حيث يتحلق مجموعة من

ذوى المعاطف البيضاء ، والمرتدين ملابس داكنة ثقيلة ، حول السرير المعدنى السائر على عجلات ، مستطردًا :

ـ .. رجل إسبانى وزوجته ، أتيا بالأمس فقط من (مدريد) ، ليقضيا بعض الوقت فى رحلة استجمام شتوية دافئة ، وكانا يخططان للذهاب إلى (شرم الشيخ) صباح غدٍ ، لكن أنبوبة غاز انفجرت فى وجه زوجته الجميلة فى الشقة التى استأجراها هنا فى (القاهرة) ظهر اليوم ، فاحترقت المسكينة وتشوهت تمامًا .. إنها هى الراقدة على السرير المعدنى هناك ، وهذا النحيل المرتدى المعطف الأزرق هو زوجها الثرى المكلوم الذى قام بحجز طائرة طبية خاصة لنقلها حيث ستجرى جراحة تجميلية عاجلة فى بلادها ، بالإضافة لطاقم طبى كامل من أطباء وممرضين مصريين وأجانب ..

فتح الضابط الأكبر أول الجوازات ، ليطالعه وجه الشقراء ذات الأنف الطويل والبشرة اللامعة ، فهتف :

ـ رباه .. هذه الجميلة تشوهت تمامًا ؟!

مصمص الضابط شفتيه قائلاً :

ـ وجهها الذى تراه فى جواز السفر قد أصبح كومة من اللحم المفرى ، كان الله فى عونها وعون زوجها ..

عقد الضابط الأكبر حاجبيه وقد عاودته الريبة من جديد :

ـ لكن .. كيف أعرف أنها حقًا من ستغادر البلاد دون سواها ؟!

قال الضابط الشاب :

ـ لقد عاينت وجهها بنفسى ، وأخبرتك أنها حالة من الحرق الشديد الذى تضيع معه الملامح تمامًا ..

قال الضابط الأكبر بريبة أشد :

ـ يجب أن أعاين بنفسى أنا الآخر ..

ونهض على الفور متجهًا إلى السرير المعدنى ، والضابط الشاب خلفه يحاول اللحاق بخطواته السريعة ، حتى إذا بلغا الجمع قال الأخير :

ـ معذرة يا سنيور (بولانسكى) ، لكن السيد الضابط يريد رؤية السيدة إن سمحتَ لنا ..

تظاهر (بولانسكى) بالتأثر وهو يشيح بوجهه عنهما ، قائلاً بنبرات مختنقة :

ـ افعلوا ما شئتم ، ولكن .. دعونا ننتهى من هذه المأساة بسرعة ..

اقترب الضابط الكبير ، مد يده إلى الملاءة التى تغطى الوجه ، ورفعها ببطء ، حتى لمح المأساة أسفلها غائبة عن وعيها ..

وجه محترق تمامًا ، كومة من اللحم المفرى على تعبير زميله الشاب ..

أنزل الغطاء على الفور ، وابتلع ريقه قائلاً فى ارتياع :

ـ يا إلهى ، احفظنا يا رب العالمين ..

ثم توجه بالحديث للسيد المتألم قائلاً :

ـ .. عذرًا يا سيدى مرة أخرى ، لكن .. كان يجب أن نتأكد ..

هز (بولانسكى) رأسه فى تفهم ، وعاد الضابطان إلى شباك الجوازات فى سرعة ، ليباشرا مهمة ختم الصفحات تباعًا ، والضابط الشاب يقول مازحًا :

ـ أسباب كهذه تجعلنى أضرب عن الزواج باقتناع تام !

هز الضابط الكبير رأسه فى تفهم وهو يقول :

ـ لديك حق ، كم أتمنى لو تنفجر عشر أنابيب غاز فى وجه زوجتى !!

أما (بولانسكى) فقد رد على هاتفه المحمول الذى رنَّ فجأة :

ـ أجل يا سنيور ، كل شىء على ما يرام .. لقد ابتلعوا الطعم بكل سهولة ..

* * *

السفارة الأمريكية فى (سيرانو) ، (مدريد) ، والليل فى أول النعاس ..

موسيقى (موتسارت) الناعمة تعزفها فرقة من المسنين المتأنقين أسفل شعار (الولايات المتحدة الأمريكية) ، الرجال فى السترات الرسمية السوداء الأنيقة ، والنساء فى أثواب السهرة اللامعة ، وموائد الطعام والشراب فوقها كميات خرافية تكفى سكان العالم كله فى ركن القاعة ..

أسفل منصة إلقاء الخطابات كان رجال الإعلام والصحفيين يعدون أجهزتهم ، المايكروفونات التى تحمل أسماء وشعارات محطات التلفزة العالمية ، الأسلاك تمتد إلى كاميرات التصوير الرقمية الحديثة ، والبعض ينظر فى أوراق بين يديه ، مثل (كارلا روبرتس) ..

كان رجل الكاميرا المصاحب لها دائمًا يميل نحوها قائلاً فى مرح ، وهو يعبث فى آلة التصوير الحديثة بين يديه :

ـ لقد صدقك المسكين (توم) بالطبع ، وربما كاد يبكى تعاطفًا معكِ ..

قالت فى عدم اكتراث دون أن ترفع عينيها عنِ الأوراق التى تراجعها :

ـ أراهنك أنه هرع إلى (إيفان) ليبلغه بكل حرف نطقت به أمامه فور مغادرتى مبنى الشبكة ..

نظر فى عدسة الكاميرا سائلا فى مكر :

ـ أليس هذا ما تريدينه ؟!

هزت كتفيها وقالت :

ـ ليعرفوا مع من يتعاملون ، ولا يرسلونى إلى مهام وضيعة مثل تغطية حفل أرستقراطى فى سفارة ، يا للعار !

حول عدسة الكاميرا نحوها قائلاً :

ـ من يدرى ؟! ربما وقعت الليلة أحداث ليست فى الحسبان تمنحك سبقًا إعلاميًا مميزًا ..

مطت شفتيها قائلةً فى استبعاد :

ـ هنا ؟! فى سفارة يحيط بها سياج أمنى من القوات الخاصة ويدين جميع الحاضرون بالولاء المطلق للقوة العظمى الوحيدة فى العالم ؟! لا أظن ..

ابتسم وهو يقرب العدسة فى حركة (زووم إن) سريعة من ملامح وجهها ، وقال عابثًا :

ـ وهل تريدين أن ترسلى برسالة إلى السيد (إيفان) على الهواء ؟!

رفعت إليه وجهًا عابسًا ، ومدت يدها أمام عدسة الكاميرا هاتفة فى استهجان :

ـ كف عن هذا فنحن لسنا فى نزهة خلوية ..

ضحك رجل الكاميرا ، بينما تجمدت عينا (كارلا) خلف كتفيه عند نقطة ما ، فسألها وضحكاته تتبخر فى الهواء :

ـ ماذا هناك ؟! هل سيشرع تنين فى التهامى من الخلف ، أم ماذا ؟!

ظلت تحدق وتشرئب برأسها كأنها تتتبع بعينيها شيئًا ما ، فهتف بها :

ـ .. (كارلا) .. ماذا هناك خلف ظهرى ؟!

ـ هه ؟!

انتبهت لسؤاله أخيرًا ، فرفعت عَينيها إليه ، وقالت :

ـ .. لا شىء ، لا عليك .. لقد تخيلت أنى أرى شخصًا أعرفه ، لكن لا يعقل أن يكون هو ، ربما شخص يشبهه لا أكثر ..

نظر رجل الكاميرا إلى حيث تنظر وهو يسألها مقطبًا :

ـ من تعنين ؟!

عادت تنظر فى أوراقها وتقول ، دون أن تقوى على منع عقلها من التفكير :

ـ هل تذكر ذلك الضابط المصرى الذى قابلناه فى مؤتمر (طابا) العلمى منذ شهور(*) ؟!

كان (عمر زهران) ينتقل بين الضيوف ، فى حلته الرسمية الفاخرة ، واضعًا يديه فى جيبى بنطاله ، ومحاولاً أن يعثر على هدفه فى الزحام فيمن حوله ..

وأخيرًا رآه ..

(جيمس بامفورد) الذى يتبادل حديثًا ضاحكًا مع السفير الأمريكى ، وثلة من المتأنقين الباسمين تحيط بهما وتضحك ، ثم يشرب الجميع نخب الحفل ..

(*) راجع الأعداد (٦) عملية الداهية ، (٨) عملية فوق السحاب ، (١٣) عملية الوجه الآخر ، (١٤) عملية الزومبى .

الليلة يجب أن يقتل هذا الرجل ، حتى يعرف السر الخفى عن نفسه !

مكالمته مع الصقر العجوز أكدت له أن هناك سرًا بالفعل ، لكن ..

هل يقوى على القتل بالفعل لمجرد أن يعرف ؟!

مجرد حضوره إلى هنا دليل على رغبته الأكيدة فى المعرفة التى تساوى القتل ..

أخافته فكرة استعداده لإراقة الدم ، غير أن الـ ...

قطعت عليه أفكاره تلك الرائحة ..

عطر (ديور) النسائى الدسم ، فالتفت على الفور لكى يراها ..

ـ كنت أعرف أنى سألقاكِ هنا ..

.. (صوفى) ، الفرنسية الضئيلة فى ثوب سهرة يكشف منطقة واسعة من الصدر والظهر ، تمسك بكأس يحوى سائلاً شفافًا ، وتبتسم فى مواجهتها لـ (عمر) على مقربة من مائدة الطعام ..

قالت (صوفى) :

ـ هذه المرة نلتقى دون أن أسدد- مسدسى نحوك ..

ثم إنها رشفت من كأسها ، بينما قال (عمر) دون أن يقدر على مبادلتها الابتسام :

ـ لكنك ستدلينني على مكان وجوده بالتأكيد !

قالت فى لهجة خفيضة تليق بأنثى مغرية :

ـ إنك لم تحضر مسدسك معك إذن ..

هز كتفيه وقال :

ـ تعلمين أن زعيمتك قد منحتنى مسدسًا بلا رصاصات ..

رشفت من كأسها مرة أخرى ، وقالت بنفس النبرة الخفيضة المتغندرة :

ـ لو كنت تبحث عن مسدسى فستجده فى الحمام الرجالى ، مخبأ أسفل ماسورة الصرف ..

حاول استعادة حسه الفكاهى إذ قال :

ـ أتعشم أن يكون محشوًا ..

ـ تأكد من هذا بنفسك ..

استدار (عمر) إلى مائدة الطعام ، وقال ممسكًا ببطنه :

ـ لم لا تشاركينى الطعام قبل بداية المهمة ؟! إننى أتضور جوعًا ، فلم أتناول شيئًا منذ الصباح الباكر ..

سمعها تقول دون أن تستدير نحوه :

ـ نصيحتى لك أن تسرع ، فأفضل وقت يمكنك أن تطلق فيه النار عندما يبدأ فى إلقاء خطابه بعد دقائق من فوق المنصة ..

سألها وهو يتناول طبقًا ويضع فيه من أصناف الطعام أمامه :

ـ وأنت ؟! ماذا ستفعلين ؟!

أتاه صوتها حاسمًا :

ـ سأختفى تمامًا ..

رفع حاجبيه سائلا فى دهشة :

ـ حقًّا ؟!

والتفت إليها ، فلم يرها واقفة فى مكانها ..

استدار بسرعة ، ونظر يمنة ويسرة ، فلم يعثر لها على أثر ، كأنها ذابت فى الزحام ..

أو كأنها لم تكن موجودة من الأصل ..

وفجأة ، تحلق الموجودون جميعًا حول المنصة ، إذ صعد السفير الأمريكى فى (مدريد) إليها ، متحدثًا فى الميكروفونات الكثيرة المتراصة أمامه فى سعادة :

ـ السيدات والسادة ، اسمحوا لى أن أرحب بضيف شرف حفلنا الليلة ، السيد (جيمس بامفورد) المستشار القانونى للرئيس الأمريكى شخصيًا ..

دوى التصفيق ، وأدرك (عمر) أن الوقت قد أزف أخيرًا ..

ترك الطبق فوق مائدة الطعام ، وتوجه إلى الباب المرسوم فوقه رجل تجريدى بجوار حرفى الـ WC الشهيرين ، ودفعه داخلا ..

تظاهر بأنه يعدل من هندامه أمام المرآة الكبيرة ، حتى غادر الرجلان المتحدثان بالإسبانية ، وعلى الفور دلف إلى المرحاض ، ومد يده أسفل ماسورة الصرف ، ليعثر على المسدس المنشود مثبتًا بشريط لاصق ..

جذبه بقوة ، وتأكد من وجود الرصاصات فى خزانته ، ثم أخفاه فى سترته ، وغادر الحمام ..

اندس فى الزحام المحيط بالمنصة ، حيث وقف السيد (جيمس بامفورد) يلقى بخطبة ارتجالية لم يسمع منها حرفًا واحدًا ..

نظر يمينًا ويسارًا ، لتصافحه الوجوه الشقراء المنشغلة بالنظر إلى رجل المنصة المتحدث ، الذى تنعكس عليه أضواء الفلاش المفاجئة ، بينما تتابعه كاميرات وسائل الإعلام فىّ اهتمام ..

بهدوء أخرج المسدس ، ودون أن يلاحظ أحد مد ذراعه ، وصوبه إلى النقطة المنشودة تمامًا ..

منتصف جبهة السيد (بامفورد) ..

اعتصرت سبابته الزناد ، وعقله يتساءل : ترى ، هل يستحق الأمر كل هذا العناء ؟!

هل يستحق إراقة دم ؟!

وفجأة ، دوى صوت إطلاق الرصاص ..

تكهرب المكان ، وتعالت الصرخات النسائية والهتافات الرجالية فى جو من الرعب والهرج ، مع الظهور المباغت لتلك الدائرة الحمراء فى الناحية اليمنى من قميص السيد (بامفورد) الأبيض ، أسفل السترة السوداء ..

دائرة تتسع من الدم ، قبل أن يسقط السيد (بامفورد) نفسه ..

انبطح كل من فى القاعة على الأرض ، باستثناء اثنين ..

(عمر زهران) الواقف مشدوهًا ، ومسدسه ما زال مصوبًا باتجاه السيد (بامفورد) ، دون أن يتصاعد دخان البارود المحترق من فوهته ..

و(كارلا روبرتس) ، التى اتسعت عيناها ذهولا وفرقًا ، محدقة فى (عمر) من موقعها أسفل المنصة ، ومغمغمة فى ذهول :

ـ لم أكن واهمة إذن ..

كانت الصورة واضحة أمامها ، وأمام الحضور المنبطحين أرضًا رجالا ونساء ، إن (عمر زهران) قد أطلق الرصاص على السيد (بامفورد) من المسدس الذى يشهره نحوه وسط الزحام ..

دوت صفارة الإنذار ، وعبر البوابة الرئيسية بدأ اندفاع الحرس الأمنى المتشح بالسواد ، والممسك بالمدافع الرشاشة ، فأيقن (عمر) أن فرص النجاة أمامه ضئيلة للغاية ..

إلا إذا ..

إلا إذا تحرك على الفور ..

تبادل نظرة أخيرة مع (كارلا) ، قبل أن يستدير ، ويركض بين الأجساد المنبطحة على الأرض ، ثم يقفز محطمًا زجاج النافذة التى تعلو مائدة الطعام ، نحو الخارج ..

أشار أحد رجال الأمن نحو النافذة هاتفًا :

ـ من هناك ؟ اتبعوه فورًا ..

وأطلق بعض الرصاصات نحو النافذة المهشمة ، فتصاعدت الصرخات مجددًا ، فيما أسرعت (كارلا) نحو كاميرا المحطة المثبتة أمام المنصة ، ورجل الكاميرا المنبطح مع المنبطحين يصيح فيها :

ـ ماذا تفعلين يا (كارلا) بحق السماء ؟!

أجابته وقد نزعت الكاميرا وحملتها على كتفها بالفعل :

ـ أقتنص سبقى الإعلامى الذى تتحدث عنه يا عزيزى ..

ثم إنها هرعت إلى النافذة المهشمة ، التى تحلق حولها رجال الأمن مطلقين رصاصاتهم ، وبدأت تلتقط الصور ،

فيما كان الذعر هو سيد الموقف بيْن الحاضرين الذى بدأ بعضهم فى البكاء والصراخ الهستيرى ، بينما صعد بعض رجال الأمن ؛ ليحملوا السيد (بامفورد) الغارق فى دمائه على المنصة ..

كان (عمر) يعدو نحو السور العالى فى يأس ، وأمطار السماء تنهمر فوق رأسه بغزارة ، تطارده الرصاصات من الخلف ، لتخترق إحداها كتفه ، وتغوص أخرى فى ظهره ، لكنه احتمى بشجرة كبيرة داخل نطاق السفارة ، أسرع يتسلقها ، رغم الرصاصات المتواصلة ، وفى اللحظة التالية قفز إلى الخارج ، ليمتزج دمه النازف بالمياه التى تغمر إسفلت الشارع الواسع ..

تناهت إلى مسامعه أصوات هاتفة من جهة بوابة السفارة القريبة ، فأيقن (عمر) أنهم تنبهوا إلى مكانه ، وأطلق ساقيه للريح فى الجهة المعاكسة رغم وقع الأقدام التى تعدو بالقرب منه ، ورغم الرصاصات التى عادت تنهمر من خلفه ..

جرحت رصاصة أذنه اليمنى مسببة ألمًا مبرحًا لا يطاق ، واخترقت أخرى عضلات فخذه ، وجاهد (عمر) للتماسك ومواصلة العدو ، غير أنه أيقن أن النهاية قد اقتربت لا محالة ، مع الرصاصة التى اخترقت ظهره فى مكان آخر ..

سقط (عمر) على ركبتيه عند نهاية الشارع الواسع وهو يلهث فى إنهاك ، وأفلت مسدسه على الإسفلت ، فى نفس اللحظة التى رأى فيها أضواء سيارة تقترب منه من شارع جانبى ، وتتوقف بجواره ، لتفصل بينه وبين الرصاصات المنهمرة ..

كان الجنود الأمريكيون يقتربون حثيثًا ، عندما انفتح باب السيارة من ناحية (عمر) ، وتناهى إلى سمعه صوت هاتف بالإنجليزية :

- هيا يا رجل .. تماسك .. اصعد إلى هنا ..

جاهد (عمر) للنهوض ، والإمساك بحافة المقعد المجاور للسائق ، الذى كان يشاهد الأمريكيين يقتربون إلى حد مرعب ، فهتف مجددًا :

- .. هل أهبط لمساعدتك أم ماذا ؟!

ضغط (عمر) على أسنانه فى ألم رهيب ، حتى استطاع النهوض إلى المقعد ، وقبل أن يغلق الباب المجاور ، صاح السائق فى هستيريا :

- .. رائع ، الآن نستطيع الانطلاق ..

وضغط دواسة الوقود بكل قوتـه ، فانطلقت السيارة مطلقـة نافورة من المياه خلفها ؛ وانغلق الباب تلقائيًا بفعل القصور الذاتى ، وانطلقت الرصاصات خلفها لتحطم الزجاج الخلفى وتخترق جسمها فى أكثر من موضع ، قبل أن تغيب فى نهاية الشارع تمامًا ، تحت مياه الأمطار ..

اقترب أحد رجال الأمن المتشحين بالسواد من موقع سقوط (عمر) ، وهو يهتف فى جهاز اتصاله اللاسلكى :

ـ النتيجة سلبية .. النتبيجة سلبية .. استطاع الهدف الفرار بواسطة شريك له يركـب سيارة (سكودا) بيضـاء موديل ٢٠٠٣ ، بلا لوحات معدنية .. أكرر .. النتيجة سلبية ..

ثم إنه لمح شيئًا على الأرض وسط المياه الممزوجة بـدم أحمر قان ، فمال يمسك به ، وعاد يهتف فى جهاز الاتصال :

ـ .. عثرنا علـى سلاح الجريمـة .. أكرر .. تـم العثـور على سلاح الجريمـة ..

وعاد إلى رفاقه الواقفين خلفه مشـهرين أسلحتهم ، ليسيروا بحركة سريعة نحو بوابة السفارة مجددًا ، دون أن ينتبه أى منهم لتلك المذيعة المشاكسة التى تجلس فوق السور حيث قفز (عمر) ، ممسكة بالكاميرا تحت المطر ، لتصور كل ما حدث ، بينما صوت سيارة إسعاف يقترب من بعيد ..

اقتربت الـ (سكودا) البيضاء موديل ٢٠٠٣ من سيارة أخرى حمراء تربض وحيدة فى شـارع جـانبى من شوارع (مدريد) القديمة الضيقة ، وهتف سائقها الأصلع ، الأشيب الفودين ، الذى يرتدى نظارة طبية ، بينما يبدو على حال يرثى له من الفوضى :

ـ لقد استطعنا فعلها يا صاح .. كنت أعرف أننا سنفعلها بنجاح ..

لم يجبه (عمر) ، وأشار الرجل إلى السيارة الحمراء الرابضة فى الخارج :

ـ .. يجب الآن أن نبدل السـيارة حتى لا يتعقبنا أحد .. قل لى ، هل تستطيع النزول وحدك أم أنك تحتـاج إلى مساعدة ؟!

والتفت إلى (عمر) لحظتها بعد أن أوقف السيارة أخيرًا ، لتتسع عيناه خوفًا وهو يـرى العرق راشحًا علـى جبهتـه ، ودماؤه تصنع بحيرة حمراء على المقعد وأرضية السـيارة ، أما عيناه فمغمضتان ..

فى غياب تام عن الوعى ..

أو عن الحياة ..

* * *

٦ـ نظرية المؤامرة ..

علا صوت (نادر الشريف) الجهورى فى ردهة مستشفى الإدارة :

ـ طلبت رؤيتى يا دكتور (على) ؟!

كان الطبيب الشاب (على ضيف) يجلس أمام المكتب ، فى الغرفة الضيقة المقابلة لعنبر (روى باور) الانفرادى ، وبمجرد سماعه للصوت نهض لتظهر أكثر من كدمة على وجهه ، وهو يلهث كأنه خرج توًا من مباراة مصارعة حرة ..

ـ .. رباه ، ما الذى حدث لك يا دكتور ؟!

أجاب الدكتور (على) وهو يبتلع ريقه فى صعوبة ، مشيرًا للبوابة المعدنية الموصدة أمامه :

ـ إنه المريض المحجوز هنا ، سيد (نادر) ..

عقد (نادر) حاجبيه سائلا فى دهشة :

ـ وكيف استطاع أن يبلغك ليلحق بك هذا الضرر الرهيب ؟!

أجاب (على) وأنفاسه اللاهثة تتلاحق :

ـ لقد طلب رؤية الطبيب المعالج بعد أن صحا من نومة القيلولة ، ولما كان الدكتور (نبيه) غائبًا حتى الآن فقد استدعونى لمقابلته .. كان هادئ الجنان فى عنبره ، وتحدث معى لربع ساعة كاملة قبل أن ينقض عليَّ فى هياج ، ويخنقنى بكل قوة ، ثم يكيل لى اللكمات والركلات هاتفًا بأقذع الألفاظ .. لولا أن لحق بى رجال الأمن بأعجوبة ، فكبله ثلاثة منهم وقيدوه فى سريره ، لكنت فقدت حياتى ، سيد (نادر) ..

ظل (نادر) غارقًا فى صمت الذاهلين لوهلة ، حتى عثر على السؤال التالى :

ـ وكيف حاله الآن ؟!

ـ انظر بنفسك ..

قالها (على) مشيرًا للفرجة الزجاجية الصغيرة أعلى الباب ، فاقترب منها (نادر) ونظر ، ليرى (روى باور) مقيدًا فى السرير ، وهو يحاول أن يتملص بكل جهده ، وكل عضلة فى جسده فى حالة من التشنج والحركة ، وهو يهتف بكلمات ما لا يمكن سماعها من خلال الجدران المصمتة العازلة للصوت ..

قطب (نادر) متسائلا :

ـ ما الذى يحدث له ؟!

وقف (على) بجواره ، وتردد للحظة قبل أن يجيب :

ـ لو أردت رأيى يا سيد (نادر) ، من خلال مقابلتى معه وما يحدث له الآن ، أستطيع أن أستنتج أمرًا دون أن يجافينى الصواب كثيرًا ..

ونظر فى عينى (نادر) قبل أن يلقى بقنبلته :

ـ .. إنه فى آخر مراحل استعادة ذاكرته كاملة يا سيدى ..

* * *

نظر اللواء (عفت حفنى) إلى جواز السفر وتذكرة الطيران على مكتبه ، قبل أن يرفع ناظريه إلى العميد (حرب) الجالس أمامه ، قائلاً وشبح بسمة يلوح على شفتيه :

ـ ستسافر إليه فى (مدريد) إذن ، عميد (حرب) ..

ملأ العميد (حرب) صدره بالهواء ، قبل أن يقول فى عمق :

ـ ليس إليه فقط يا سيادة اللواء .. إن كل ما جاهدت فى حياتى من أجل إخفائه أضحى الآن على حافة الانكشاف ..

هز اللواء (حفنى) رأسه فى تفهم ، قائلاً :

ـ كان هذا سيحدث إن آجلا أو عاجلا يا عزيزى ..

قال العميد (حرب) فى غيظ :

ـ المشكلة أنه يحدث بصيغة تآمرية استفزازية أعجز عن فهمها ، وأشم فيها رائحة ابتزاز واضحة ..

أشار اللواء (حفنى) إلى شاشة التليفزيون المفتوحة فى المكتبة المواجهة لهما ، والتى تعرض صورة للمستشار الأمريكى (بامفورد) والرصاصة تصيبه فى حفل السفارة الأمريكية ، عبر إحدى المحطات الإخبارية العالمية ، وعلى ركن الشاشة علامة تحويل النظام إلى العرض المرئى دون صوت (MUTE) ، ثم سأل متخذًا أقصر الطرق :

ـ هل تعتقد أن تلميذك هو الذى قتل (جيمس بامفورد) ، عميد (حرب) ؟!

قال العميد (حرب) دون أن ينجح فى إخفاء نبرة الأسى فى صوته :

ـ معذرة يا سيدى ، لكنك لو استمعت إلى النشرة فستعلم أن (بامفورد) لم يلق مصرعه رسميًا بعد ، وأنه مازال فى العناية المركزة داخل أكبر مستشفيات (إسبانيا) ..

قال اللواء (حفنى) :

ـ بين الحياة والموت ، بمعنى أن المحصلة واحدة بالنسبة

لـ (عمر) لو كان ارتكبها ، سيدمغه الأمريكيون بدمغة الإرهابى ويطاردونه إلى أقاصى الأرض ..

هز العميد (حرب) كتفيه قائلاً فى وجوم :

ـ ليس هناك ما يثبت تورطه فى أمر كهذا ..

قال اللواء (حفنى) :

ـ مسألة وقت فحسب ، ألم يخبرك أنه سيذهب فى مهمة إلى السفارة الأمريكية ؟! هل هى محض صدفة توافقية أم ماذا ؟!

ضيق العميد (حرب) عينيه ناظرًا إلى رئيسه المباشر ، وهو يحاول انتقاء الكلمات المناسبة لما يريد قوله :

ـ عذرًا يا سيدى ، ولكن .. لماذا أشعر برنة شماتة خفية فى حديثك معى ؟!

تنهد اللواء (حفنى) ، وخلع نظارته الطبية ، سارحًا بعينيه الصغيرتين فى البعيد وهو يقول :

ـ ليس هذا مقصدى بالطبع .. أنت على علم بأننى كنت من أشد المناهضين للمشروع الذى بدأتموه وقتها ، والذى يعود إلى الحياة اليوم بعد سنين من الكمون .. لم يسمع أى

منكم لاعتراضاتى ولم تلقوا بالا لوجهة نظرى ، أذكر جيدًا أن والد تلميذك (فهمى زهران) بالذات وصفنى بالرجعى المتخلف ، وكنت على علم بأن يومًا كهذا سيأتى حتمًا ، حيث يجب أن نواجه ما نجهله بعد كل هذه السنين ..

هز العميد (حرب) رأسه فى تأثر ، مغمغمًا ومرددًا :

ـ نعم يا سيدى .. بعد كل هذه السنين ..

عاد اللواء (حفنى) يضع نظارته على عينيه ، قائلاً :

ـ ما لا أفهمه ، هو سبب قرارك بالسفر .. ماذا تنوى أن تفعل فى (مدريد) بالضبط ؟! بل للدقة ، ماذا تملك أن تفعل هناك ؟! هل توصلت لأى خيط يمكن أن يقودك إلى (رجل الليل) المجهول الذى ظهر فجأة ؟!

ـ ليس بعد يا سيدى ، رغم أن فريقًا كاملا يعمل لمحاولة الوصول إلى ما يقودنا إليه ، خاصة أن (دينا واصف) فى حوزته الآن تقريبًا ..

سأل اللواء (حفنى) :

ـ هل استطاعوا تهريبها إلى خارج البلاد ؟!

وأجاب العميد (حرب) :

ـ لا نعلم ، لكن البراعة لا تنقصهم فى اعتقادى ..

ثم عاد العميد (حرب) إلى مسار الحوار الأصلى :

ـ .. سبب سفرى إلى هناك يتعلق بامرأة أظن أن لها علاقة بما يجرى ، فهى لا تظهر فى قلب الأحداث عبثًا ، بالإضافة إلى علاقتها من بعيد بمشروع السبعينات القديم من خلال الشركة الفرنسية التى تملكها ..

قال اللواء (حفنى) محاولاً اعتصار دماغه :

ـ أنت تعنى تلك الفرنسية القعيدة ... ماذا كان اسمها ؟!

ـ (مادلين تشايمر) .. هناك أنباء من رجالنا فى (مدريد) تفيد بوجودها هناك ، وقد استطاعوا الحصول على عنوانها وتخضع الآن لمراقبة مستمرة من جهتنا ..

ـ هل تعتقد أنها تتخفى وراء لقب (رجل الليل) هذا ؟!

تساءل اللواء (حفنى) وهاتف مكتبه يرن ، فرفع السماعة ليرد ، بينما يجيب العميد (حرب) :

ـ ربما ، من يدرى ؟!

هتف اللواء (حفنى) فى سماعة الهاتف :

ـ ماذا ؟! أين ؟! (فى بى سى نيوز) ؟! شكرًا ..

وأغلق السماعة ليمسك بجهاز التحكم عن بعد من فوق مكتبه ، ويشرع فى تقليب قنوات التليفزيون على الفور ، تتابعه عينا العميد (حرب) الحادتين ، وهو يسأل :

ـ هل من جديد يا سيادة اللواء ؟!

أجابه (عفت) وهو منهمك فى تقليب القنوات :

ـ يقولون إن محطة أمريكية تذيع تطورات خطيرة فى حادث مقتل (جيمس بامفورد) ، أعنى محاولة قتله ، هذه التطورات لها علاقة مباشرة بتلميذك يا سيادة العميد ..

وبمجرد إنهائه لعبارته ، ظهرت على ركن شاشة التليفزيون العلوية حروف (فى بى سى نيوز) ، وضغط اللواء (حفنى) على زر MUTE مرة أخرى ليتحرر الصوت الحبيس ..

على الشاشة كانت هناك صور سقوط (جيمس بامفورد) بطلقة فى صدره تتوالى ، نفس الصور المعروضة فى جميع القنوات الأخرى ، بينما صوت المذيع ينطلق معلقًا :

ـ مراسلتنا (كارلا روبرتس) من قلب الحدث فى (مدريد) ، توافينا بمستجدات خطيرة فى تطور قضية محاولة قتل السيد (بامفورد) فى قلب السفارة الأمريكية .. (كارلا) .. هل تسمعيننى ؟!

صوت (كارلا) :

ـ أسمعك بوضوح ، (بيتر) .. مازال الجو مطيرًا للغاية هنا فى ليل (مدريد) ، ويتوقعون هبوط الثلج مع إطراد الليل ..

(بيتر) :

ـ (كارلا) .. لقد كنت من المدعوين فى حفل السفارة ، أليس كذلك ؟!

(كارلا) :

ـ أجل ، كنا نقوم بتغطية الحفل ، حينما وقع حادث الاغتيال ، وقد قمت بتصوير اللقطات التى تشاهدونها الآن بنفسى بعد وقوع الحادث بلحظات قليلة ..

اللقطات التالية كانت لقوات الأمن التى اقتحمت السفارة ، الكادر ينقلب ويميل فجأة وهو يتابعهم فى إطلاقهم للنار من خلال النافذة المهشمة ، ثم قطع إلى الخارج ، من زاوية علوية ، رجل يرتدى بذلة سوداء وهو يعدو فى الشارع الذى تنيره أعمدة الإنارة تحت المطر ، تتابعه طلقات رصاص ، حتى تأتى (سكودا) بيضاء وتحمله بعيدًا ، ثم رجل الأمن يمسك بالمسدس ويعود أدراجه ..

ـ (كارلا) .. هل كانت هذه صور الجانى الهارب ؟!

ـ فى الغالب هى كذلك يا (بيتر) .. كل من كانوا فى الحفل شاهدوا هذا الرجل يصوب مسدسًا إلى السيد (بامفورد) قبل أن يفر من النافذة ، ثم عبر السور إلى الشارع ، ومن مصادرى الخاصة علمت أنه رجل له جذور عربية إسلامية ، تعود إلى (مصر) غالبًا ..

ـ ربما يثير هذا التساؤلات حول علاقته بتنظيم (القاعدة) الذى احترف هذا النوع من الهجمات الإرهابية ..

ـ ربما ، لكن السؤال الحقيقى هو عن سلاح الجريمة الذى رأينا أحد الحراس يحمله من الشارع ، فيما تنكر السلطات الأمنية تمامًا عثورها عليه ..

كانت الشاشة تعيد عرض صورة مقربة جدًا لـ (عمر) وهو يركض فى الشارع النصف مضاء ، عندما نهض العميد (حرب) ، متناولا جواز سفره وتذكرته من فوق المكتب ، وقائلاً فى حزم :

ـ أستأذنك يا سيدى ، فطائرتى إلى (مدريد) تقلع بعد نصف ساعة فقط ..

ولم يجبه اللواء (حفنى) ، المستغرق فى متابعة صورة (عمر زهران) التى تجمدت فوق الشاشة ، وحولها دائرة حمراء ، مع تعليق المذيع :

ـ هذا هو الجانى إذن ؛ تبعًا لشهادة الشهود !

* * *

المطر ينهمر فى الخارج ، هذا أول ما سمعته أذناه وهو يفيق على رائحة المخدر الشنيعة ، قبل حتى أن يفتح عينيه ..

صوت آخر ، أوراق وصرير قلم على ورق ..

صوت آخر منخفض ، رجل يتحدث بالإسبانية من بعيد ، الكلام المتراص يدل على نشرة أخبار لا يفهم منها إلا الاسم المميز جدًّا ..

السنيور (جيمس بامفورد) ..

المكان دافئ ، هذا ما شعر به وهو يفتح عينيه أخيرًا ، ليجد نفسه نائمًا على سرير ، مغطى ببطانية سميكة ، والضمادات تحيط بجذعه العارى أسفل البطانية ..

إنها غرفة ضيقة جدًّا ، السرير يحتل مساحتها كاملة تقريبًا ، والعقاقير والأدوات الطبية الملوثة بالدم المتخثر ملقاة فى إهمال على منضدة مجاورة ..

الضوء صادر من الخارج عبر الباب الضيق ، ضوء مصباح نحاسى واحد شحيح ، لا يكشف كل شىء ..

الصداع الرهيب يدمر خلايا مخه ، والألم يعصف بكيانه ..

نهض (عمر زهران) محاولاً الاعتدال على السرير ، ضاغطًا على أسنانه كى يتجاوز الإحساس الرهيب بالألم ، ليكتشف أن هناك إبرة مغروسة فى وريد ذراعه ، موصلة بخرطوم يتدفق من خلاله محلول الجلوكوز إلى دمه ، هذا المحلول معلق إلى جوار السرير المعدنى الذى يصر فى إزعاج مع كل حركة تند منه ، فمد يده الأخرى ونزع الإبرة من ذراعه ..

آخر ما يذكره هو الرصاصات ، السقوط ، وأخيرًا ..

السيارة البيضاء ..

نهض متحاملا على نفسه ، وتجاوز الباب الضيق إلى الصالة الأوسع قليلا فى الخارج ، ليرى على ضوء المصباح النحاسى الرجل الجالس بين كم هائل من الكتب المفتوحة ، والصحف والمجلات الملقاة فى إهمال هنا وهناك ، وهو يدون على الأوراق أشياء لا يستطيع رؤيتها ..

الرجل الأصلع ، الأشيب الفودين ، الرث الهيئة ، الذى يرتدى نظارة قراءة سميكة ..

على الأرض بجواره فوق منضدة منخفضة جهاز تليفزيون صغير جدًا فى حجم صندوق سهل الحمل ، تعرض شاشته صورة مشوشة بالأبيض والأسود لنشرة أخبار التليفزيون الأسبانى ، ويجلس أمامها رجل ضئيل ، آسيوى الملامح فى وضوح ، ناعم الشعر طويله ..

ـ لقد استيقظ صديقنا الشجاع يا دكتور (ميشيما) بعد نوم الساعات الطويلة على ما يبدو ..

قالها الأصلع ناظرًا إلى (عمر) الواقف فى صعوبة أمام الباب الضيق ، فالتفت إليه الآسيوى ببسمة واسعة وهو يقول بلكنة مميزة جدًا :

ـ لم يكن هناك الكثير من المخدر كى أعطيه له ، لابد أنْ الألم هو الذى أيقظه ..

وحنى رأسه فى تحية الشرق الأدنى المميزة ، مردفًا وهو يخاطب (عمر) مباشرة :

ـ .. مرحبًا بك يا عزيزى أيًا كان اسمك ..

انتبه (عمر) لحظتها إلى أن جدران الصالة من حولة مغطاة تمامًا بقصاصات صحف ، وصور ملونة ورمادية ، ووريقات مكتوبة بخط اليد والآلة الكاتبة .. كل شبر من الجدران المحيطة به يحوى عناوين رئيسية مُجَزَّأة ، ووجوه شاخصة باسمة ومكفهرة ، وصور لأحداث تاريخية جسيمة ، وعلامات بأقلام فلوماستر حول عبارات وأشخاص ، وملاحظات مدونة بالرصاص وبالحبر فى الحواشى هنا وهناك ..

ـ أين أنا ؟!

تساءل (عمر) فى وهن وقدماه ترتجفان ، فضحك الأصلع الذى يشير شيبه وتجاعيد وجهه إلى نهاية العقد السادس من العمر ، قبل أن يقول مشيرًا إلى المقعد الشاغر أمامه :

ـ لا تخف يا صديقى ، أنت فى مكان أمين .. اجلس هنا أمامى ، فلابد أنك تشعر بإجهاد خارق ، بعد أن أنقذ الدكتور (ميشيما) حياتك بأعجوبة ..

ألقى (عمر) بنفسه على المقعد المقابل للأصلع ، فيما قال الدكتور (ميشيما) من مجلسه أمام التلفاز فوق الأرض :

ـ لقد فقدتَ كمية هائلة من الدم ، وقد قمتُ باستخراج أربع رصاصات من مناطق متفرقة فى جسدك باستخدام وسائل طبية غاية فى البدائية .. إنك لمحظوظ بحق أن تفيق من غيبوبتك يا صديقى ..

قال الأصلع وبسمته تتسع :

ـ الدكتور (ميشيما) كان جرَّاحًا صينيًّا بارعًا فى طب الطوارئ ، قبل أن يتحول إلى أبرع جراحى عالم الليل السفلى هنا فى (مدريد) ، بل فى (أوروبا) كلها لو أردت الحقيقة ، صحيح أن أجرته مرتفعة قليلا لكن ، لا بأس مادام يؤدى مهمته بنجاح فى النهاية .. بالمناسبة ، هاك الرصاصات الأربع لو كنت تريد الاحتفاظ بها للذكرى !

وأشار إلى أربع رصاصات عيار ٩ مل متراصة فى مفرق كتاب مفتوح أمامه ، ثم إنه أشار إلى طبق يحوى بعض الجبن والخبز بين الكتب والصحف الملقاة :

ـ .. وإن كنت جائعًا فيمكنك أن تأكل من هذا ، إنه كل ما أملك من زاد حاليًا ..

عافت نفس (عمر) مجرد النظر إلى الطبق ، وقفز إلى السؤال الذى يلح على ذهنه ، مغمغمًا وهو يحاول تجاوز آلامه :

ـ كيف .. كيف استطعت الوصول إلىّ فى تلك الوقت الحرج ؟!

أضاء وجه الأصلع بالحبور قبل أن يقول :

ـ سؤال وجيه .. لكن ، ألا ينبغى أن أقدم نفسى لك أولا ؟!

ثم شرع فى تقديم نفسه دون انتظار رد :

ـ .. أنا الدكتور (رالف آندرسون) ، نمساوى الأصل أمريكى المولد والجنسية ، أستاذ جامعى سابق للعلوم السياسية فى جامعة (فرجينيا) ، قبل أن أطرد من عملى منذ سنوات لأسباب تتعلق بالسياسة أيضًا ، هل تريد أن تعرف هذه الأسباب ؟!

ثم إنه استطرد دون انتظار إجابة :

ـ .. كنت قد بدأت فى كشف جوانب المؤامرة الكبرى التى يتم طهيها على نار هادئة منذ زمن بعيد ، فلم يحتملوا أن يكشف أحد سرهم ، طردونى وشردونى بين البلاد ، مطارد بتهم أنا برىء منها ، وهارب من ماضىّ وحاضرى ومستقبلى .. هل تريد أن تعرف ما هى هذه المؤامرة ؟!

قاطع (عمر) فيض حماسه الملتهب :

ـ أريد أن أعرف لماذا أنقذتنى أمام السفارة فحسب !

هتف (رالف) مع هزيم الرعد فى الخارج :

ـ الإجابة التى تريدها تحتاج إلى قليل من الصبر ، حتى ترى الصورة كاملة من جميع جوانبها يا عزيزى .. إننى أحدثك عن مؤامرة عالمية رهيبة يتم الإعداد لها ويجرى تنفيذها فى الخفاء ، وكل من يعترض طريقها فالويل كل الويل له ..

وهزم الرعد مرة أخرى ، مع عبارة (رالف) العميقة :

ـ .. مؤامرة التحكم فى العقول ..

وانطلق كصخر حطه السيل من عل :

ـ .. دعك من محاولاتهم السيطرة علينا وغسل عقولنا إعلاميًّا عن طريق البرامج ونشرات الأخبار التى تخفى أكثر مما تكشف ، والأفلام والمسلسلات والأغانى التى تحمل رسائل خفية ، والكتب والصحف والمجلات المضللة ، ومواقع الانترنت التافهة والإباحية ، على طريقة شحن مشاعر القطيع التى ابتدعها (جوبلز) وزير الدعاية الألمانى فى عهد (هتلر) ، الطاغية الذى ضلل شعب (ألمانيا) لسنين طويلة وقاده نحو الهلاك .. وليتَهُم اكتفوا بهذا النوع الرهيب من التحكم فى العقول ، إذن لهان الأمر ، لكنهم لن يرضوا بأقل من السيطرة الكاملة يا عزيزى ، السيطرة الكاملة والتامة على عقولنا جميعًا .. كيف ؟! إنهم يريدون زرع أنفسهم داخل أمخاخنا نفسها .. أمخاخنا المادية !

أشار (رالف) بذراعية لجدران الصالة الحافلة بالقصاصات والصور ، متابعًا :

ـ ..انظر حولك ، ستجد أن كل ما يحدث حولنا بشكل

يبدو عشوائيًّا ليس إلا خطة مدروسة بعناية يتم تطبيقها منذ زمن بعيد ، لا شىء يحدث بشكل عشوائى أبدًا ، المشكلة أننا لا نرى إلا جانبًا ضئيلا للغاية من الحقيقة ، والجانب الأكبر يبقى فى الظل ، فى الظلام ، وعندما تحاول أن تسلط عليه بصيصًا من الضوء ، يتم اتهامك بالجنون ، و يقومون بتلفيق عدد من التهم المهينة لك ، وإصدار أحكام غيابية ضدك ، لتقضى بقية عمرك مطاردًا تنظر خلفك فى كل خطوة تخطوها خوفًا من رصاصة طائشة قد تصيبك من هنا أو من هناك .. لقد حاولت بإخلاص ، كتبت عددًا من المقالات ونشرت عددًا من الكتب فى سبعينات وثمانينات القرن الماضى ، بيعت منها نسخ محدودة ؛ لأن القراء ظنوها روايات فانتازيا خيالية ، والآن أحاول نشرها على شبكة الانترنت ، لكنهم يملكون الشبكة أيضًا ، ويطاردوننى عبرها أملا فى الوصول إلى ، الخلاصة أن الخطر محدق بى من كل الجهات كما ترى ..

ورقّ صوته إذ استطرد حاكيًا :

ـ .. فى أوائل سبعينات القرن الماضى كنت فى بداية طريق كشف المؤامرة .. كنت عميلا للمخابرات الأمريكية وأحد أركان هيئة التفكير الرئيسية فيها ، وطوعًا سلمتهم

ابنى ليجروا عليه تجربة علمية خَاصة جدًّا ، تعتمد على زراعة شريحة إلكترونية متناهية فى الصغر داخل دماغه وهو بعد طفل ، لدراسة تأثيرها عليه مع رحلة النمو ، تمت العملية بنجاح لكنها تركت فى قلبى ندبة ، وعندما قررت الثورة ضدهم وهددت بفضحهم بعدها بسنوات قليلة ، أخذوا منى الطفل ومنحوه هوية جديدة ، وأودعونى مصحة للعلاج النفسى بتشخيص البارانويا والضلالات .. إن ابنى ما زال معهم ، ربما أصبح شابًا فى مثل سنك ، لكن .. ليت الأمر انتهى عند هذا الحد ..

سأله (عمر) فى انزعاج وهو يقاوم الصداع الزاحف على رأسه ، وينظر إلى الضمادات المشبعة بالدم التى تحيط بجذعه كله :

ـ ما علاقتى أنا بكل هذا ؟!

استمر (رالف) كأنه لم يسمعه :

ـ عندما هربت من مصحة العلاج النفسى ، أرسلوا خلفى من يهشم رأسى بآلةٍ معدنية حادة ، لا زال أثرها واضحًا حتى الآن ، وقد نجوت من الموت بأعجوبة لأكتشف الحقيقة المريعة ..

نهض من جلسته فجأة ، متجهًا لنقطة ما على الحائط ، وانتزع صورة كبيرة داكنة ، عرضها للضوء وهو يتابع مشيرًا بقلمه إلى نقطة واضحة عليها :

ـ .. عندما أجروا لى فحصًا بأشعة (رونتجن) العادية فى غرفة الطوارئ ، وجدوا فى رأسى جسمًا غريبًا ، شريحة إلكترونية زرعوها فى رأسى دون أن أشعر كما ترى ، لا أعلم متى أو أين تم ذلك لكن الصورة أبلغ من أى تعبير ..

نظر (عمر) إلى صورة الأشعة على ضوء المصباح النحاسى ، وقد أظهرت منظورًا جانبيًّا للوجه والرأس ، لتبرز نقطة مضيئة متوهجة أكثر مما حولها فى منطقة قاع الجمجمة ..

ـ .. ربما كنت أنا الآخر عرضة للتجربة التى أجروها لابنى قبلها بسنوات ، وربما كان لى أب وأم أجهلهما ، انتزوعنى منهما ليمنحونى اسمًا وهوية أخرى كما فعلوا مع ابنى ، ربما كنا جميعًا كذلك ، فبعض الأدلة تشير إلى أن المؤامرة كونية ، ربما لو أجريت فحصًا بالأشعة على رأسك يا صديقى لعثرت على نفس الشريحة الإلكترونية داخلها ، هل تحب أن تجرب ؟! إن الدكتور (ميشيما) يستطيع أن يجرى لك فحصًا من هذا النوع دون الحاجة للذهاب إلى مستشفى ..

تدخل الدكتور (ميشيما) بقوله :

ـ لكنى لا أحبذ أن تفعل ، أنا شخصيًّا لم أجر فحصًا لنفسى خوفًا من النتيجة .. أحيانًا يصبح الجهل نعمة يا صاح !

شعر (عمر) أنه قد وقع فى براثن مخبولَين لهما الفضل فى إنقاذ حياته ، وظهر الاكفهرار على ملامحه فأسرع (رالف) يقول :

ـ أعلم أننى صدعت رأسك ، لكنى الآن أستطيع الوصول إلى النقطة التى سألتنى عنها .. إن ما أوصلنى إليك كان يتعلق بالشق الآخر من المؤامرة ، أعنى السيطرة على اقتصاد العالم فى أيدى بعض الأشخاص المنتقين بعناية ليساعدوا فى تنفيذ المخطط ، ومن هؤلاء الأشخاص رجل أدرس تاريخه منذ زمن ، وأتقصى المعلومات خلفه فى بطء واثق .. رجل يدعى (روى باور) ..

هزم الرعد فى الخارج مجددًا ، بينما (رالف) يستأنف :

ـ .. كل الإشارات والعلامات التاريخية والفلكية والمنطقية ، التى أسهر الليالى فى قراءتها وتحليلها عبر الكتب والصحف ووسائل الإعلام المختلفة ، كانت تشير إلى أنه سيتواجد اليوم فى (مدريد) ، متزامنًا مع وجود رجل مهم ، وقد قادنى تتبع

العلامات إلى السفارة الأمريكية ، صحيح أننى لم أجد (روى باور) كما افترضت ، لكن ثبوت صحة العلامات يعنى دليلا إضافيًّا على وجود المؤامرة الكبرى التى أحدثك عنها ، للسيطرة على مقدرات العالم .. أليس كذلك ؟!

ـ أين ملابسى ؟!

سأل (عمر) وهو ينظر حوله باحثًا عن بذلته التى لا يرتدى سوى بنطالها ، فأجابه (رالف) :

ـ تخلصت منها فى سائل إذابة حتى لا يعثر عليها أحد ، إنها لم تكن تصلح لأن ترتديها ثانية على أى حال ..

ـ ماذا ؟!

هتف بها (عمر) فى استهجان ، فلوَّح (رالف) بكفيه وهتف مهوِّنًا :

ـ لا تخف ، لقد بحثت فى جيوبها جيدًا قبل أن أتخلص منها ، ولم أجد سوى هذا ..

لوَّح ببطاقة أسرع (عمر) بتناولها منه ، والتحديق فيها مع الغمغمة :

ـ والمسدس ؟!

- لم تكن تحمل أى مسدسات ..

هز (عمر) رأسه ، ثم تحامل على نفسه واقفًا ، وسار خطوات نحو باب الشقة الصغيرة ، فسأله الدكتور (ميشيما) عاقدًا حاجبيه :

- إلى أين ؟! إنها الرابعة فجرًا الآن !

قال (عمر) دون أن يلتفت إليه ، متأملا البطاقة فى يده :

- مشوار مهم يجب أن أقوم به فى الحال ، دون أدنى تأخير ..

تساءل (رالف) فى دهشة :

- وهل ستحتمل السير بحالتك الصحية المزرية هذه ؟!

- لا تخش شيئًا ، سأعود وأنقدك ما دفعته من أجر للدكتور (ميشيما) ..

قالها وشرع فى فتح الباب ، عندما صاح فيه (رالف) :

- انتظر ..

نظر (عمر) نحوه ، فرآه يلقى نحوه بسلسلة مفاتيح نحوه ، متابعًا :

- .. خذ السيارة الحمراء الرابضة بالأسفل ، إن جسدك لن يحتمل الأمطار والبرودة ..

تناول (عمر) المفتاح فى الهواء بحركة بارعة ، وحاول أن يبتسم لـ (رالف) فى امتنان ، والأخير يقول ببسمة أبوية :

- .. أمر أخير ، حاول أن تعود إلى هنا سالمًا ..

* * *

٧ـ الصدمة ..

عطست (كارلا روبرتس) فى قوة ، وتمخطت فى منديل ورقى قبل أن تهتف بنبرات منزعجة خنفاء :

ـ يا لفيروس الزكام اللعين ، كيف أظهر على الشاشة مرة أخرى وأنا على هذا الحال ؟!

قال رجل الكاميرا ـ الجالس واضعًا ساقًا فوق أخرى فى فرع المحطة بـ (مدريد) ـ متبرمًا :

ـ لن تحتاجى إلى الظهور أمام الكاميرا ما دمت تقفين وراءها بمثل هذا النجاح ..

هتفت فيه محنقة :

ـ ماذا أفعل إن كان رفيقى قد خاف كالدجاجة ولم ينطلق خلف الجانى كما فعلت أنا ؟!

بادلها زميلها الحنق مضاعفًا :

ـ ألم تفكرى أنك بفعلتك هذه تضعيننى فى موقف حرج ؟! وتدفعين بمستقبلى فى هذه المهنة إلى حافة النهاية ؟!

عطست ، ثم تمخطت وقالت :

ـ ما يهمنى تحقيق النجاح بغض النظر عن أى اعتبارات شخصية ..

وتركته على الفور ، متجهة إلى موظف احمرت عيناه من الإرهاق والسهر فى جلسته أمام شاشة المونتاج ، وسألته :

ـ هل وصلت إلى أوضح صورة تقريبية للمسدس فى يد رجل الأمن ؟!

ـ ما زلت أحاول ، لكن الإرهاق يكاد يقتلنى ..

ـ أعطنى نتيجة تحرج السلطات التى تنكر وجود المسدس ، ونم بعدها كما أحببت ..

ثم تركته متجهة إلى موظفة تنظر فى شاشة متابعة وتضع سماعتين على أذنيها ، سائلة إياها وهى ترفع إحداهما حتى يتسنى لها سماعها :

ـ هل من جديد ؟!

قالت الموظفة :

ـ لم يسبقنا أحد فى إذاعة جديد بعد ، الجميع منهمكون فى إيجاد رابط بين الجانى وتنظيم (القاعدة) كما قال (بيتر) فى إرسال الهواء ..

ابتسمت (كارلا) فى ظفر وهى تقول :

ـ دعيهم يضيعون وقتهم سدى ، أنا واثقة من أنـه ليس كذلك .. هيا ، تابعى كل المحطات وأخبرينى لو جد جديد ..

أعادت السماعة إلى أذنى زميلتها فى نفس لحظة دخول شاب يحمل خبرًا :

ـ (كارلا) ، هناك اتصال تليفونى خاص بك ..

ـ ممن ؟!

ـ رجل يدعى أنه يعرف الجانى ..

طارت (كارلا) إلى سماعة الهاتف ، وهتفت فيه بعد عطسة قوية :

ـ آلو .. من معى ؟!

أتاها الصوت الوقور من الطرف الآخر ، يتحدث بإنجليزية ذات لكنة إسبانية :

ـ أنا السنيور (إنريك ألفونسو) ، رئيس مجلس إدارة UFC ltd. ، وأعتقد أنّ لدى فكرة قوية عن هوية الرجل الذى تذيعون صورته المسجلة كل خمس دقائق ..

* * *

رشفت من كأس السائل الأحمر فى يدها ، وهى تراقب شاشة التليفزيون حيث يقول المذيع :

ـ الأنباء الواردة من المستشفى الملكى فى (مدريد) تفيد بتدهور حالة السيد (جيمس بامفورد) الصحية ، رغم جهود الفريق الطبى المكثفة من أجل إنقاذ حياته .. هذا ويستعد الرئيس الأمريكى لتوجيه خطاب إلى العالم صباح اليوم ، بعد حادث الأمس الأليم فى السفارة الأمريكية بالعاصمة الإسبانية ..

احتلت الصورة الأرشيفية لحادث الاغتيال الشاشة ، حيث تتسع الدائرة الدموية فى صدر (بامفورد) خلف المنصة ، فمصمصت (مادلين تشايمر) شفتيها وغمغمت :

ـ ليس هو ، فالرصاصة لم تأت فى مكانها الصحيح ..

ثم إنها أرسلت بصرها إلى النافذة المفتوحة فى جانب الغرفة ، حيث هبت دفقة من النسيم البارد ، وغمغمت مرة أخرى :

ـ .. توقف المطر أخيرًا ، سوف يأتى الآن ..

وكأنها كانت تتنبأ ، فقد طرق الباب طارق ، ودخلت (صوفى) بعدها قائلة بعد أن استعادت سمتها الداكن ، لا كما ظهرت فى الحفل :

ـ هناك ضيف بالخارج يا سيدتى ..

رشفة ، ثم :

ـ المصرى ؟!

ـ ليس من تنتظريه ، إنه مصرى آخر ..

ـ من ؟!

ـ أعطانى هذه البطاقة ..

تناولتها (مادلين) ونظرت فيها بغير اكتراث ، غير أنها بمجرد أن لمحت الاسم المدون بحروف لاتينية التمعت عيناها ، وهتفت فى جذل :

ـ أدخليه على الفور ..

أشارت (صوفى) إلى النافذة المفتوحة :

ـ هل أغلقها ؟!

ـ كلا ..

ـ ألا تشعرين بالبرودة ؟!

ـ أعشق نسائم الفجر العليلة .. هيا ، لا تتركى ضيفنا ينتظر ..

خرجت (صوفى) وتحركت (مادلين) بكرسيها المتحرك إلى منتصف الحجرة ، مراقبة الرجل الذى دخل بملابسه الثقيلة ، وملامحه الحادة التى جعلته شبيهًا بصقر ..

صقر عجوز ..

وقف فى مواجهتها صامتًا ، وكانت هى البادئة بالسلام :

ـ مرحبًا بالرجل الثانى فى إدارة المكتب (١٧) ..

صمت ، ثم :

ـ .. مرحبًا بالصقر العجوز ..

تنهد (منصور حرب) ، ودون أن يبادلها التحية قال :

ـ جئت من مطار (باراجاس) إلى هنا رأسًا ..

قالت باسمة كأنها طفلة تلهو بدمية :

ـ أمر طبيعى ، ما دام رجالك يراقبوننى منذ وصلت إلى شقتى الصغيرة هذه فى قلب العاصمة ..

دون أن يعير (منصور حرب) ملاحظتها التفاتًا ، قال :

ـ ماذا تريدين ؟!

ـ أعشق الأساليب المباشرة ، لذا سأخبرك على الفور بما أريده ..

ثم إنها أشارت إلى ساقيها المشلولتين المتدليتين من المقعد المتحرك :

ـ .. أريد قدماى يا سيادة العميد .. أريد أن أمشى عليهما مرة أخرى بعد أن فقدتهما بسبب كشفى للحقيقة ..

سألها مقطبًا :

ـ ألم يكن مجرد حادث تصادم ؟!

ضحكت فى استمتاع ، قبل أن تقول :

ـ بدأت تراوغنى الآن .. أليست صدفة عجيبة أن يقع حادث التصادم البرىء هذا فى نفس يوم معرفتى للحقيقة المروعة ، التى دفع أبى حياته نفسها ثمنًا لها ؟!

ـ والدك قصة أخرى ، ولم نكن نحن الذين قتلنـ ...

قاطعته فى صرامة حارقة :

ـ ملفات المشروع السرى الذى تم بين إدارة المهام الخاصة ، المكتب (١٧) فى (القاهرة) ، وإدارة شركة التقنيات الأولى فى العالم فى بداية عقد السبعينات فى القرن العشرين ، شركة (ماربل) فى (باريس) ، لا تزال فى حوزتى يا سيدى ، مع كثير من الحقائق الأخرى التى تكشفت لاحقًا ، والتى أواظب على جمعها حتى اليوم ..

ـ كان لنا العديد من الشركاء فى ذاك المشروع السرى ، أخالك لا تجهلين ذلك ..

ـ بالفعل ، لكنكم كنتم الطرف الثانى فى العقد الذى تم توقيعه مع أبى ، قبل موته مقتولا بفترة يسيرة ..

ـ أكرر أننا لم نقتله ..

ـ وأكرر أننى لن أقبل بأقل من عودة قدمىَّ من جديد ، وإلا كشفت أسراركم أمام بعضكم ، وأمام العالم أجمع ..

ـ إنك تطلبين المستحيل ، لا أخالك تجهلين هذا أيضًا ..

ـ تخيل أحد تلاميذك عندما يعلم أنه كان مجرد فأر تجارب ، وأنه قضى حياة مزيفة تحت تأثير جهاز مزروع فى قاع جمجمته ..

ـ كفى عن هذا الهذر يا (مادلين) ، ولا تشعلى نار فتنة قد تنقلب حربًا لا يعلم مداها إلا الله وحده ..

ـ ليحترق العالم بما فيه ومن فيه ..

وألقت الكأس على الأرض ليتهشم قطعًا تتلألأ ، فى بحيرة من سائل أحمر ، ثم إنها نظرت فى عينى (منصور حرب) مباشرة ، وهى تقول :

ـ .. أعد لى قدمى وانعم بمشروعك السرى إلى الأبد يا سيدى ..

ـ هكذا إذن ؟!

قالها العميد (حرب) وأنفاسه الحارة تتكاثف فى سحب بيضاء عند أرنبة أنفه ، ثم إنه أردف :

ـ .. تذكرى أننى أتيت إليك بنفسى هاهنا لأصل إلى تسوية ترضى جميع الأطراف ، وأنك أنتِ من ترفضين مد يدك لى .. تذكرى هذا جيدًا يا (مادلين) ..

ظلت تنظر إليه كلبؤة غاضبة ، فى حين استدار هو مغادرًا المكان ..

غابت عيناها فى قطع الكريستال المكسور على الأرض ، وهى تتذكر ، ودون أن تشعر سال خيط من الدمع الساخن على وجنتها البيضاء ..

لم تنتبه فى ثورة غضبها ، ولم ينتبه (منصور) حرب فى خضم ثورته ، إلى أن زوجًا من العينين كان يرمقهما من زاوية النافذة فى الخارج ..

فعلى الإفريز الخارجى العريض للنافذة ، كان هناك شبح يراقب ويسمع كل ما دار بينهما ..

شبح حليق الرأس ، تحيط الضمادات بجذعه وفخذه المصابين ، ويرتدى ملابس مهلهلة تفوح منها رائحة الدم والمخدر والعطن ..

شبح (عمر زهران) !

* * *

أشار الدكتور (ميشيما) لـ (عمر زهران) بالجلوس على المقعد الوحيد فى الغرفة الضيقة ، التى لا تفيها كلمة (فوضى) حقها ولا تصلح كلمة (القذارة) وحدها لوصف حالها ، قائلاً :

ـ عذرًا ، فمنازل أطباء عالم الليل السفلى ليست كمنازل أطباء السطح اللامع يا عزيزى ..

ارتمى (عمر) على المقعد فى إنهاك ، دون أن يقوى على الكلام ، فى حين أخذ الدكتور (ميشيما) يعمل على جهاز كبير بجوار كابينة صغيرة؛ تشبه كبائن الهاتف فى الشوارع العمومية ، وهو يواصل ثرثرته :

ـ .. هذا الجهاز من اختراعى ، ويقوم بنفس وظيفة جهاز

الكشف بأشعة (إكس) الأنيق فى المستشفيات الكبرى ، الفارق الوحيد فى هيئته البدائية كما ترى ..

أخذ (عمر) يتنفس بصعوبة ، ويجاهد لطرد الغربان السود عن خواطره المكلومة ، فى حين أطلق الجهاز بين يدى (ميشيما) بعض الأصوات ، قبل أن يلتقط صورة كبيرة من صور الأشعة ، أمسكها الأخير بين يديه ، وقبل أن يعرضها للضوء خاطب (عمر) فى لهجة متعاطفة :

ـ .. فرصتك الأخيرة للتراجع ، ولتتذكر دائمًا أن الجهل نعمة ..

نهض (عمر) ، وتناول الصورة من بين يدى (ميشيما) ، الذى قال متابعًا إياه بعينيه الضيقتين :

ـ .. إنها العبارة التى يستخدمها إمبراطور العالم الذى أنتمى إليه ، عالم الليل السفلى ..

رفع (عمر) الصورة إلى مصدر ضوء النيون فى سقف الغرفة ..

ـ .. الجهل نعمة ، هكذا كان يقول دائمًا عندما كنت أسأله عن أمر يشغل بالى ..

.. وشاهد وجهه فى وضعية جانبية (بروفيل) ، عظام الوجه والجمجمة والعمود الفقرى وكتلة المخ و ...

ـ .. إنه الوحيد الذى يملك تفسيرًا لكل شىء فى عالمنا ، لذا يطلقون عليه فى عالم الليل السفلى اللقب الذى يستحقه رجل مثله ..

.. والنقطة المضيئة المتوهجة أكثر مما حولها فى منطقة قاع الجمجمة ..

جمجمته ..

ـ .. لقب (رجل الليل) ..

* * *

[تم الجزء الأول بحمد الله]